مقدمة

الأساس الفكرى للتصوف الإسلامى
مقال فى المنهج

بقلم

الأستاذ الدكتور / منيع عبد الحليم محمود

عميد كلية أصول الدين بالقاهرة جامعة الأزهر

إن الحديث عن الأخلاق الإسلامية هو حديث عن المقربين، والوصول إلى القرب من الله تعالى، ليس بالأمر السهل، إنه يحتاج إلى كثير من المجاهدة من أجل تزكية النفس، ولن يصل الإنسان إلى تزكية النفس، إلا إذا تحرر من متاع الدنيا، ومتاع الدنيا بينه الله تعالى بقوله: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)[١].

ويعقب الله سبحانه وتعالى على ذلك بقوله: (وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

والعدول عن متاع الدنيا إلى حسن المآب عند الله سبحانه وتعالى- وهو عدول عن النقص فى اتجاه نحو الكمال- له ثمنه من الجد فى العبادة، والأخذ بالعزائم.

إن ثمنه هو ما عبر عنه الإمام أبى حامد الغزالى فى إجمال مجمل: (تقديم الهمة، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى)[٢].

وكل ذلك يتعارض مع ما زين للإنسان من متاع الدنيا.

لابد منذ المبدأ - من (رياضة وإرادة) على حد تعبير ابن سينا.

إرادة صارمة فى محاولة القرب من الله تعالى: مصدر الكمال ومصدر التجليات، ولابد من اتجاه الكيان الإنسانى- فى صورة قوية إلى الحق سبحانه وتعالى.

والحديث عن الأخلاق الصوفية الإسلامية - إذن - إنما هو حديث عن: ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين، وهو إذن حديث لقليل من الآخرين إنه حديث للمجتبين من عباد الله: (اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ)[٣].

متى بدأ هذا الاتجاه فى الإسلام ؟

أنه بدأ مع شروق حياة رسول الله ﷺ.

---

(١) آل عمران آية : ١٤

(٢) إحياء علوم الدين والمنقذ من الضلال (للإمام أبى حامد الغزالى)

(٣) سورة الشورى آية : ١٣

إن الأنبياء يصطنعهم الله تعالى لنفسه[١]، ويصنعهم على عينه[٢]، وهم جميعا بأعينه[٣].

ونحن حينما نقرأ سيرة رسول الله ﷺ نجد حديثا من أحاديثه ﷺ يلخص سيرته قبل مولده.

يقول رسول الله ﷺ:

(إن الله تعالى خلق الخلق فجعلنى فى خير فرقهم وخير الفرقتين، ثم تخير القبائل، فجعلنى فى خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلنى فى خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا)[٤].

أما بعد مولده ﷺ فإننا نقرأ فى السيرة الشريفة هذه الحادثة الرمزية حادثة شق الصدر؛ وهذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه منذ الطفولة المبكرة: لقد كان صلوات الله وسلامه عليه إذ ذاك فى بادية بنى سعد عند مرضعته وبينما هو يلعب مع الغلمان- على ما يروى الإمام مسلم - أتاه جبريل عليه السلام، فأخذه فأضجعه فشق عن قلبه فأستخرجه فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه.

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعنى مرضعته - أن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو ممتقع اللون، وكان ذلك وهو ابن أربع سنين تقريبا، فلما كان ابن عشر سنين، تكرر حادث شق الصدر، فقد روى الإمام أحمد، وابن حبان، والحاكم وابن عساكر، عن أبى بن كعب: أن أبا هريرة ﷺ كان جريئا أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأل عنها غيره فقال:

يا رسول الله ما أول ما رأيت فى أمر النبوة؟

فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال:

لقد سألت أبا هريرة، إنى لفى صحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسى وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو؟

قال : نعم

فاستقبلاني بوجوه لم تر لخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إلى يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما

---

(١) يقول الله تعالى عن سيدنا موسى (واصطنعتك لنفسى)
(٢) يقول الله تعالى عن سيدنا موسى (ولتصنع على عينى)
(٣) يقول الله تعالى عن سيدنا محمد ﷺ (وأصبر لحكم ربك فإنك باعيننا)
(٤) رواه الترمذى عن العباس بسند صحيح.

بعضدى لا أجد لأحدهما مسا.

فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه، فإضجعانى بلا قسر ولا هصر.

وقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره.

فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع، فقال له:أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئا كهيئة العلقة، ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة، ثم هز إبهام رجلى اليمنى فقال: أعدوا وأسلم. فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ورحمة على الكبير.

وإن المغزى الواضح لهذه الحادثة إنما تزكية للنفس فى بواكير الحياة الإنسانية، وفى بواكير الحياة الروحية، وذلك أنه إذا استخرج حظ الشيطان من القلب أصبح القلب طاهراً، ليس للشيطان عليه من سبيل.

مراحل الطريق إلى الله:

وأول مراحل الطريق إلى الله التوبة الصادقة، التى تنتزع- فى قوة - حظ الشيطان من القلب.

وتمضى السنون برسول الله ﷺ ، وليس للشيطان عليه من سبيل.

إنه فى طهر الملائكة ﷺ إلى أن كانت الليلة المباركة:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ،فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)[١].

وهى ليلة القدر.

يقول الله تعالى:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ،وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ)[٢].

وكان ذلك فى رمضان - يقول سبحانه:

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ)[٣].

وكانت الكلمات الأولى من الوحى

---

(١) الدخان آية : ٣- ٦
(٢) سورة القدر بتمامها.
(٣) البقرة آية : ١٨٥

(اقرأ باسم ربّك الذي خلق)[١].

وكانت إقرأ رمزا لكل الأعمال التى يأتيها الإنسان، وذلك أنه يجب على الإنسان أن تكون أعماله (باسم ربك) ما يأتى منها وما يدع.

ومما يبين الاتجاه هذا الذى بدأ منذ مشرق الرسالة، قول الله فيما بعد:

(ولا تأكلوا مِمَّا لَمْ يُذكَر اسمُ اللهِ عليْهِ وإنَّهُ لفِسق)[٢].

فالأكل مما لم يذكر اسم الله عليه فسق محرم على المؤمن.

ويقول الله تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ والدَّمُ ولَحْمُ الخِنْزِيرِ ومَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ والمُنْخَنِقَةُ والمَوْقُوذَةُ والمُتَرَدِّيَةُ والنَّطِيحَةُ ومَا أكَلَ السَّبُعُ إلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ومَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وأنْ تَسْتَقْسِمُوا بالأزْلام ذلِكُمْ فِسقٌ)[٣].

فما أهل به لغير الله فسق، وما ذبح على النصب فسق، وكل ما كان لغير الله فهو فسق محرم، كما جاءت به الآيات الكريمة، وكانت على الطريق المشروع.

أما الطيبات: فهى ما اتجه الإنسان بها إلى الله سبحانه، إنها ما كانت باسم الرب، ما كانت باسم التربية الإلهية، ما كانت باسم المربى، ويشرح الله تعالى ذلك فى الآيات الكثيرة التى نذكر منها بحسب الترتيب القرآنى مبينا فيها الاتجاه إلى الله وإسلام الوجه له سبحانه:

(بَلَى مَنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فلهُ أجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ولا خَوفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ)[٤].

(ومَنْ أحْسَنُ دِينا مِمَّنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفا)[٥].

(إنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ والأرْضَ حَنِيفا ومَا أنَا مِنَ المُشْرِكِينَ)[٦].

(ومَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فقَدِ استَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى وإلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُور)[٧].

---

(١) سورة العلق آية : ١
(٢) الأنعام آية : ١٢١
(٣) سورة المائدة آية : ٣
(٤) البقرة: ١١٢
(٥) النساء: ١٢٥
(٦) الأنعام: ٧٩
(٧) لقمان: ٢٢

(فأقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ)[١].

(فأقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّمِ)[٢].

ويجمل الله تعالى كل ذلك فيقول:

(قُلْ إنَّ صَلاتِي ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ وبِذَلِكَ أمِرْتُ وأنَا أوَّلُ المُسْلِمِينَ)[٣].

أن تكون الحياة: نوما ويقظة، قولا وصمتا، حركة وسكونا، خالصة لله تعالى، بل والممات أيضا يكون خالصا لله فى سبيله.

وينبثق عن كل ذلك فى صورة حتمية:

فضيلة الإخلاص: ولقد تحدث الإسلام - قرآنا وسنة - عن الإخلاص لله وحده فى صورة مستفيضة ومن ذلك الآيات القرآنية الكريمة الآتية:

(إنَّا أنْزَلْنَا إلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ فاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصا لَهُ الدِّينَ ، ألا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِص)[٤].

(فادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ولَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ)[٥].

(ومَا أمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ويُقِيمُوا الصَّلاةَ ويُؤْتُوا الزَّكَاةَ وذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ)[٦].

وفى السنة المطهرة:

ما روى عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

(من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة فارقها والله عنها راض)[٧].

وعن معاذ بن جبل أنه قال- حين بعث إلى اليمن- يا رسول الله أوصنى؟ قال ﷺ : (أخلص دينك يكفك العمل القليل)[٨].

---

(١) الروم : ٣٠
(٢) الروم: ٤٣
(٣) الأنعام: (١٩٢- ١٩٣).
(٤) الزمر: ٢-٣
(٥) غافر: ٦٤
(٦) البينة: ٥
(٧) رواه ابن ماجه والحاكم
(٨) قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين.

ولقد سئل رسول الله ﷺ - فيما رواه البيهقى - عن الإيمان، فقال: (الإخلاص)[١].

ويروى الإمام مسلم ﷺ عن أبى هريرة رضوان الله عليه أن رسول الله ﷺ قال:

(إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم)[٢].

وروى البزار - بإسناد لا بأس به- أن رسول الله ﷺ قال: فيما يرويه عن ربه، أن الله تبارك وتعالى يقول:

(أنا خير شريك فمن أشرك معى شريكا فهو لشريكى، وأيها الناس أخلصوا أعمالكم فإن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ولا تقولوا: هذا لله وللرحم فإنها للرحم وليس لله منها شئ ولا تقولوا: هذه لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله منها شئ)[٣].

وكل ما ذكر تجمعه كلمة واحدة هى الإسلام.

وسواء نظرنا لكلمة إسلام من الوجهة اللغوية، أو نظرنا إليها من الوجهة الدينية، فإنها تشتمل على كل المعانى التى ذكرناها. أما من الوجهة اللغوية، فيقول ابن الأنبارى (المتوفى سنة ٣٢٨هـ):

المسلم: معناه المخلص لله عبادته من قولهم: سلم الشئ لفلان خلص له، فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى.

أما من الوجهة الدينية، فقد سئل رسول الله ﷺ عن الإسلام فقال:

(أن يسلم لله قلبك، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك).

ولقد سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال:

(الإيمان : الإخلاص).

ولا يخرج كل ذلك عن كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله.

وكلمة الإخلاص توضحها سورة الإخلاص:

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل هو الله أحد الله الصمد، (الذى يستعان به ويلجأ إليه، ويقصد فى اليسير من الأمور والعظيم منها)، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد)

---

(١) رواه البيهقى

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه وابن ماجه فى سننه.

(٣) أخرجه البزار والبيهقى.

ويتناسق مع كلمة الإخلاص، وسورة الإخلاص، موضحاً ومفسراً قوله تعالى:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)[١].

ويتناسق مع كل ذلك موضحا أيضاً ومفسراً:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[٢].

كل ما فى الكون من: حركة وسكون، وقول وعمل، وفكر وحال:

الكيف من كل ذلك والكم والزمن والمكان.

(وهو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن).

وتأتى أحاديث مستفيضة فى بيان كلمة الإسلام منها:

ما روى عن رسول الله ﷺ فيما رواه عن رب العزة سبحانه:

يا عبادى: إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا.

يا عبادى: كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم؛

يا عبادى: كلكم جائع الأمن أطعمته فاستطعمونى أطمكم؛

يا عبادى: كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم؛

يا عبادى: إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفرلكم:

يا عبادى: إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى؛

يا عبادى: لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم: كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا!

ياعبادى: لو أن أولكم وأخركم وأنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كان إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.

يا عبادى: إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

كنت خلف النبى ﷺ ، يوما فقال: يا غلام إنى أعلمك كلمات.

---

(١) فاتحة الكتاب.

(٢) آل عمران آية: ٢٦.

(احفظ الله يحفظك- احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله - وإذا استعنت فاستعن بالله-، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرونك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[١].

وفى رواية:

احفظ الله تجده أمامك، وتعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، واعلم أن ما أخطاك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك واعلم أن النصر مع الصبر؛ وأن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسرا.

وكل هذا من معانى: (لا إله إلا الله)

ولا إله إلا الله: هى التوحيد والإسلام طابعه وشعاره هو التوحيد.

التوحيد: توحيد الله فى ذاته، وتوحيده فى قوله:

أما ذاته فهى أحديته، وأما أفعاله فهو سبحانه فى حكمته السامية:

(يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَار)[٢]

وليس لأحد من الأمر معه شئ، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه وهو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وإليه يرجع الأمر كله وإليه المصير.

والإسلام إذن هو: (إسلام الوجه لله)، إنه (إسلام الذات لله) وهو (إياك نعبد وإياك نستعين) وهو: (لا إله إلا الله) وهو: (التوحيد).

وإذا كان الإمام الشبلى يعرف التصوف بقوله: (بدؤه معرفة الله، ونهايته توحيده).

فإن هذا هو المراد فى الخلق الإسلامى، إن بدؤه معرفته تعالى على أساس من العلم- وفى جو من المعرفة الصادقة.

معرفته: أحدا عالما مريدا قادراً

معرفته: جليلاً - جميلاً- معرفته: هيبة وأنسا تذوب من هيبته الجبال، ويأنس به عباده الذين أنعم عليهم.

ونهايته توحيده: (لا إله إلا الله).

وتوحيد الله سبحانه وتعالى يتفاوت فيه الناس إلى ملايين ملايين الدرجات.

إن منهم من يقول: (لا إله إلا الله).

---

(١) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) القصص آية: ٦٨

ومنهم من يقتنع بأن (لا إله إلا الله).

ومنهم من يؤمن بأن (لا إله إلا الله).

ومنهم من يعتقد أن (لا إله إلا الله).

ولكن الذروة، ذروة الإيمان والإسلام، ذروة العقيدة وذروة السلوك أيضاً هى: (أشهد أن لا إله إلا الله).

وهؤلاء الذين يشهدون أن: (لا إله إلا الله) إنما يشهدونها مع ملائكته سبحانه: (شهد الله أنه: لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم).

إنهم يشهدون التوحيد؛ وشهادة التوحيد هى قمة الإيمان، وهى قمة التدين وهم بطبيعة الأمر قلة: (ثلة من الأولين؛ وقليل من الآخرين).

وإذا كان الإمام الكتانى يعرف التصوف فيقول أنه : (صفاء ومشاهدة) فإن تعريفه يتناسق مع: (أشهد ألا إله إلا الله).

وهذه القمة هى الهدف الأخير؛ وهى الغاية التى تعز على من رامها إلا بالجهد المتواصل ومع توفيق الله سبحانه لا يصل إليها إلا من اجتباهم الله سبحانه وتعالى:

إنه لا يصل إليها إلا المقربون، ومع صعوبتها الشامخة؛ فإن باب الله مفتوح أمام الذين يسيرون على صراطه ليدخلوا فى إطار من أنعم عليهم.

أشهد أن لا إله إلا الله: كيف نرتقى إلى هذه القمة.

إن الله سبحانه وتعالى يأمر فيقول: (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)[١]

ويذكر سبحانه قول سيدنا إبراهيم: (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي)[٢]. (إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي)[٣].

كيف نهاجر إلى الله ؟

يقول رسول الله ﷺ:

(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)[٤].

ولقد سئل رسول الله ﷺ فى حديث طويل رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح: أى الإيمان أفضل؟

---

(١) الذاريات آية: ٥٠

(٢) الصافات آية: ٩٩

(٣) العنكبوت: ٢٦

(٤) أخرجه البخارى وأبو داود والنسائى عن ابن عمر وقال حديث صحيح.

قال: الهجرة.
فقيل له: وما الهجرة؟
قال: أن تجهر السوء.
فقيل له: أى الهجرة أفضل؟
فقال : الجهاد.

وعن أم أنس رضى الله عنها أنها قالت: يا رسول الله أوصنى:
قال: (أهجرى المعاصى فإنها أفضل الهجرة، وحافظى على الفرائض فإنها أفضل الجهاد، وأكثرى من ذكر الله فإنك لا تأتين الله بشئ أحب إليه من كثرة ذكره)[١].

وفى رواية لهما عن أم أنس:
(واذكرى الله كثيراً فإنه أحب الأعمال إلى الله أن تلقاه بها)[٢].

وتبدأ هذه الهجرة بالنية:

يقول رسول الله ﷺ فيما رواه عمر بن الخطاب ﷺ:
(إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل إمرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هجر إليه)[٣].

إن يهجر الإنسان السوء فى النية، وأن يصبح القلب سليما:

عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر الله قلوبكم)[٤]، وأن يهجر السوء فى الأعمال فتصبح أعماله دائما مجردة عن الإثم يجاهد فذلك أفضل الهجرة.

والجهاد فى سبيل الله هو جهاد أوسع وأشمل مما تحتمله الكلمة:
إنه جهاد النفس لتتزكى، وجهاد الأسرة لتستقيم، وجهاد فى المجتمع ليهتدى إلى التى هى أقوم، وجهاد الأعداء فى كافة المجالات.
(والمؤمنون أشداء على الكفار رحماء بينهم).

ولقد فسر رسول الله ﷺ الجهاد بكل هذه الألوان منه وذلك أول الطريق.

والذهاب إلى الله هجرة دائمة إليه، إنه هجرة:

---

(١) رواه الطبرانى باسناد جيد.
(٢) قال الطبرانى: أم أنس هذه يعنى الثانية ليست أم أنس بن مالك.
(٣) متفق عليه.
(٤) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه.

من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.
ومن ظلمات البدعة إلى نور السنة
ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة
ومن ظلمات الحظوظ إلى نور الحقوق
ومن ظلمات طلب الدنيا إلى نور طلب الآخرة
ومن ظلمات المعصية إلى نور الطاعة
ومن ظلمات الكثائف إلى نور اللطائف
ومن ظلمات الهوى إلى نور اليقين
ومن ظلمات الدعوى إلى إشراق نور التبرى من الحول والقوة
ومن ظلمات الكون إلى شهود نور المكون
ومن ظلمات التدبير إلى إشراق نور التفويض، إلى غير ذلك مما لا يحصره العدد[١].

والنهج الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى الأمة بالذات هو:
(ففروا إلى الله).
وتعليل الفرار: (إنى لكم منه نذير مبين)
يقول الإمام الصاوى فى ذلك:
قوله تعالى: (ففروا إلى الله) مفرع ما علم من توحيد الله، والمعنى: حيث علمتم أن الله واحد لا شريك له، وأنه الضار النافع المعطى المانع فالجأوا إليه، واهرعوا إلى طاعته.

والفرار مراتب :
ففرار العامة من الكفر والمعاصى إلى الإيمان والطاعة، وفرار الخاصة من كل شاغل عن الله: كالمال والولد، إلى شهود الله والانهماك فى طاعته، فلا يصرف جزء من أجزائه لغير الله، فكما أن الله فى خلق العبد واحد، فليكن العبد فى إقباله على ربه واحدا، بحيث لا يجعل فى قلبه غير حب ربه (وفى ذلك فليتنافس المنافسون)

كيف يفر الإنسان إلى الله؟

ما هو المنهج؟

إن هذا المنهج رسمه الله سبحانه وتعالى فى كثير من آيات القرآن الكريم، موجزاً أحيانا فيكون:
(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[١].

---

(١) أنظر لطائف المنن للإمام ابن عطاء الله السكندرى

أو: (ولَوْ أنَّ أهْلَ القُرَى آمَنُوا واتَّقَوْا لفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)[٢].

أو: (إنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ،نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)[٣].

ونحب أن نتحدث فى شئ من التفصيل الموجز عن منهج أجمله القرآن فى آيات محددة من الكتاب الكريم:

يقول الله تعالى فى سورة الزمر: تلك السورة التى أخرج النسائى عن عائشة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرؤها كل ليلة (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[٤].

عن أبى عبد الرحمن المزنى يقول سمعت ثوبان مولى رسول الله ﷺ يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية):

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ) إلى آخر الآية، فقال رجل: يا رسول الله فمن أشرك؟ فسكت النبى ﷺ ثم قال: (ألا ومن أشرك) ثلاث مرات[٥].

وجاء فى مسند الإمام أحمد: أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ شيخ كبير يدعم على عصا له فقال: يا رسول الله: إن لى غدوات وفجرات! فهل يغفر لى؟

فقال ﷺ: ألست تشهد أن : لا إله إلا الله؟

فقال: بلى أشهد أنك رسول الله؟

قال ﷺ: قد غفر لك غدراتك وفجراتك.

إن الله سبحانه وتعالى يفتح الطريق واسعا أمام الطالبين مغفرته، الراجين رحمته؛ لأن لا يقنط أحد من رحمة ربه، فإنه:

---

(١) النحل آية: ٩٧

(٢) الأعراف آية : ٩٦

(٣) فصلت آية ٣٠ - ٣١

(٤) الزمر آية: ٥٣

(٥) تفرد به الإمام أحمد فى مسنده

(لا يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)

ولا ييأس من روحه تعالى، فإنه:

(لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

فإذا كان الحج المبرور يطهر الإنسان من ذنوبه حتى يخرج منها، كيوم ولدته أمه كما قصت السنة المطهرة على هذا، وروت الكتب الصحاح، فإن الجو الإسلامى كله مفعم بفتح أبواب الرحمة أمام عباد الله المخلصين:

(من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)[١].

(من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه)[٢]

والإسلام يجب ما قبله.

وتبين لنا سورة الزمر فى آياتها الكريمة مقدار رحمة الله الواسعة وترسم لنا الطريق لذلك؛

يقول الله سبحانه وتعالى: (وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ)[٣].

فالطريق إلى مغفرة الله ورحمته هو التوبة الخالصة النصوح، وهى الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى أى: التوبة فى أسمى درجاتها.

وإسلام الوجه لله سبحانه وتعالى، وبعد أن يندم الإنسان على ذنوبه ويخرج منها ويتبرأ ترسم له الآية التى تتلو ذلك طريقه:

(وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ)[٤].

وأحسن ما أنزل إلينا من ربنا هو القرآن الحكيم - إنه:

(يهدى للتى هى أقوم، ويبشر المؤمنين).

مهيمن على غيره، مبين للحق فيما يختلف فيه أهل الكتب السماوية.

ثم يتلو ذلك آيات ثلاث تبين موقف الإنسان الذى لم يتب أو الذى تاب ولم يتبع:

(أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم فى صحيحيهما

(٣) الزمر آية: ٥٤

(٤) الزمر آية : ٥٥.

أو تقول : لو أن الله هدانى لكنت من المتقين.

(أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين)[١].

وكل ذلك لا جدوى منه والرد عليه واضح حاسم من الله سبحانه وتعالى: (بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين)[٢].

ويبين الله حالة هؤلاء يوم القيامة فيقول:

(ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين)[٣]؟

لا شك أن فيها مثوى للمتكبرين مثوى يختلف ويتفاوت باختلاف درجاتهم فى الكبرياء والمعاصى وتفاوتهم فيها.

ويختم الله سبحانه هذه الآيات التى ترسم المنهج وتبين المصير بالنسبة للذين تابوا، وأنابوا، واتبعوا الذكر الذى نزل عليهم من ربهم، بقوله تعالى:

(وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون)[٤].

فى هذا المنهج الواضح نتبين رحمة الله الواسعة الشاملة العامة، التى لا تضيق بمن لجأ إليها، فلا يأس ولا قنوط من غفران الله سبحانه وتعالى ويكفينا قول رسوله ﷺ (أنا نبى التوبة)[٥].

فإذا كانت التوبة الصادقة هى أول الطريق، فإن لها من المكانة فى الجو الإسلامى ما يتناسب مع تاثيرها فى حسن الخلق.

وبعد: فإن الآيات القرآنية التى أجملت المنهج تحدثت بعد التوبة عن:

(وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون)

---

(١) الزمر آية : ٥٦: ٥٨

(٢) الزمرة آية : ٥٩

(٣) الزمر آية: ٦٠

(٤) الزمر آية: ٦١

(٥) جزء من حديث صحيح أخرجه أحمد ومسلم عن أبى موسى، وأخرجه الطبرانى ونصه: (أنا محمد وأحمد، والمقفى والحاشر، ونبى التوبة ونبى الرحمة).

(وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ)

ولقد رسم رسول الله ﷺ منهج العمل وبين ثمرته، روى الإمام البخارى بسنده عن رسول الله ﷺ فيما رواه عن ربه:

(من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، ولئن استعاذنى لأعيذنه).

والتوبة الصادقة تثمر العمل، ولكن هذا العمل يتفاوت فى درجاته، ولقد آبان الله سبحانه وتعالى درجات من العاملين:

فمنهم ظالم نفسه. ومنهم مقتصد. ومنهم سابق بالخيرات.

وهؤلاء السابقون بالخيرات بين الله سبحانه وتعالى ما لهم عنده فقال:

(جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أسارو من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير).

(وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن أن ربنا لغفور شكور)

(الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب)

ولقد بين الله سبحانه وتعالى فى سورة الواقعة طبقات الناس بالنسبة للهداية والاتباع، فقال سبحانه: وكنتم أزواجا ثلاثة – أى أصنافا ثلاثة:

أ) فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة.

ب) وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة.

ج) والسابقون السابقون، أولئك المقربون) أ. هـ

وهؤلاء المقربون ليسوا بالكثيرين، إنهم على حد التعبير القرآنى:

(ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ).

ويتحدث الله سبحانه وتعالى عن النعيم الذى أعد للمقربين فيقول بعد ذكرهم فى السورة نفسها فى الآية الخامسة عشرة وما بعدها:

(عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ).

(مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ)

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ)

(بأكواب وأباريق وكأس من معين)
(لا يصدعون عنها ولا ينزفون)
(وفاكهة مما يتخيرون)
(ولحم طير مما يشتهون)
(وحور عين)
(كأمثال اللؤلؤ المكنون)
(جزاء بما كانوا يعملون)
(لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما)
(إلا قيلا سلاما سلاما)
أما أصحاب اليمين فإنهم:
(ثلة من الأولين وثلة من الآخرين)
وهنا لم يقل القرآن الكريم وقليل من الآخرين كما ذكر في المقربين، وذلك لأن المقربين صفوة الصفوة وهم بحكم ذلك أقل عددا.
ويصف الله سبحانه وتعالى - في السورة نفسها- النعيم الذى أعده لأصحاب اليمين فيقول - في الآية الثامنة والعشرين وما بعدها.
(وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين)
(في سدر مخضود)
(وطلح منضود)
(وظل ممدود)
(وماء مسكوب)
(وفاكهة كثيرة)
(لا مقطوعة ولا ممنوعة)
(وفرش مرفوعة)
(إنا أنشأناهن إنشاء)
(فجعلناهن أبكارا)
(عربا أترابا)
(لأصحاب اليمين).
ثم يذكر الله سبحانه وتعالى أصحاب الشمال ومما أعد لهم من عذاب فيقول:ـ في الآية الثانية والأربعين وما بعدها.. بعد قوله:ـ
(وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال)
(في سموم وحميم)
(وظل من يحموم)

(لا بارد ولا كريم)
(إنهم كانوا قبل ذلك مترفين)
(وكانوا يصرون على الحنث العظيم)
(وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون أوآباؤنا الأولون)
(قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم)
(ثم إنكم أيها الضالون المكذبون).
(لآكلون من شجر من زقوم)
(فمالئون منها البطون)
(فشاربون عليه من الحميم)
(فشاربون شرب الهيم)
(هذا نزلهم يوم الدين)
وفى السورة الجميلة سورة الإنسان، والتى تسمى أيضا: سورة الأبرار، يتحدث سبحانه وتعالى عن الأبرار فيقول فى الأسلوب القرآنى الجميل- المعجز فى الآية الخامسة وما بعدها:
(إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا)
(عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا)
(يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا)
(ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا)
(إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا)
(إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا)
(فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا)
(وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا)
(متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا)
(ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا)
(ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا)
(قواريرا من فضة قدروها تقديرا)
(ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا)
(عينا فيها تسمى سلسبيلا)
(ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا)
(وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا)

(عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا)

(إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا). أ هـ

ويتحدث الحق تبارك وتعالى عن الأبرار في سورة المطففين فيقول:

في صورة من الأسلوب العالى فى الآية الثامنة عشرة وما بعدها:

(كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين)

(وما أدراك ما عليون)

(كتاب مرقوم)

(يشهده المقربون)

(إن الأبرار لفي نعيم)

(على الأرائك ينظرون)

(تعرف في وجوههم نضرة النعيم)

(يسقون من رحيق مختوم)

(ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)

(ومزاجه من تسنيم)

(عينا يشرب بها المقربون)

ومهما كانت منزلة الأبرار من الرفعة والتفاضل فإن المقربين يتفضل الله عليه بأكثر.

يقول الإمام الألوسى عند قوله تعالى:

(ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون)

(قال ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وأبو صالح: (يشرب بها المقربون صرفا وتمزج للأبرار).

ومذهب الجمهور: أن الأبرار هم أصحاب اليمين، وأن المقربين هم السابقون كأنهم إنما كان شرابهم صرف التسنيم لاشتغالهم عن الرحيق المختوم بمحبة الحى القيوم، فهى الرحيق التى لا يقاس بها رحيق، المدامة التى تواصى على شربها ذوو الأذواق والتحقيق:

(على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم)

- ونعود إلى التوبة من جديد:

إذا صدقت نقلت الإنسان مباشرة إلى (أهل اليمين) ومن أهل اليمين من يلتزم أداء الواجبات وترك المنهيات، ويكتفى بذلك، وهذا

يصدق عليه قول رسول الله ﷺ: (أفلح إن صدق)

روى الإمام البخارى بسنده عن طلحة بن عبيد الله يقول: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام؟

فقال رسول الله ﷺ: خمس صلوات فى اليوم والليلة.

فقال: هل على غيرها؟ ، قال: لا إلا أن تطوع.

قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص

قال رسول الله ﷺ: (أفلح إن صدق).

وهذا المؤمن وأمثاله والقريب منه، يستمرون طيلة حياتهم بتوفيق الله من: (أهل اليمين).

ولكن التوبة الصادقة تقود الإنسان أحيانا إلى أداء الواجبات والانتهاء عن المنهيات ثم العمل فى قوة فى سبيل الله، فتكون التوبة ثمرة إرادة لا تلين فى الاتجاه إلى الله وتكون ثمرة الإرادة الصادقة.

والتوبة النصوح: رياضة يتجه بها الإنسان إلى الله تعالى.

ويتوافر فى هؤلاء، ما عبر عنه ابن سينا عن العارفين، من أن طريقهم يتلخص فى : (رياضة وإرادة).

والرياضة هنا: عبادة خالصة لوجه الله تعالى، مصحوبة عادة بصوم إنهم اللذين (يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه)[1].

وهم: (الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون).

ويعقب الله سبحانه وتعالى على وصفهم الطيب هذا بقوله:

(فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون)[2].

وهم الذين:(رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ،ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب)[3].

---

(١) الكهف آية: ٢٨

(٢) السجدة آية : ١٦، ١٧

(٣) النور: ٣٧: ٣٨

ولقد وصف الله سبحانه طريق المتجهين إليه عدة مرات فى القرآن الكريم: وصف طريقهم ووصف ما ينتظرهم فى الدنيا والآخرة من ذلك ما يقوله سبحانه:

(التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله_ وبشر المؤمنين)[١].

والوصفان: الأول والثانى: يقف عندهما أصحاب اليمين، أما المقربون فإنهم أيضا حامدون- وقد أمر الله تعالى بالحمد- فقال سبحانه:

(قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى)[٢].

والحمد لله آخر دعاء أهل الجنة (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)[٣].

ولأهل الحمد بيوت فى الجنة، روى (الإمام الترمذى وحسنه) بسنده عن أبى موسى الأشعرى ﷺ إن رسول الله ﷺ قال: (إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته:

قبضتم ولد عبدى؟

فيقولون: نعم

فيقول: فماذا قال عبدى؟

فيقولون: حمدك واسترجع.

فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد)[٤].

وروى الإمام مسلم بسنده عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

(إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها).

وكما يختم الإنسان عمله بالحمد، فإنه يبدأه أيضا بالحمد، عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال:

(كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد فهو أقطع).

والحامدون هم أول من يدعى إلى الجنة: أخرج بن مردوية، وأبو الشيخ والبيهقى فى الشعب، عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: قال

---

(١) التوبة: ١١٢

(٢) النمل: ٥٩

(٣) يونس آية: ١٠

(٤) رواه الترمذى

رسول الله ﷺ: (أول من يدعى إلى جنة الحمادون الذين يحمدون على السراء والضراء).

وجاء عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان النبى إذا أتاه الأمر يسره، قال: (الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: (الحمد لله على كل حال).

- **والمقربون أيضا سائحون:**

والواقع أن الاختلاف فى معنى السياحة هما لا مبرر له، وذلك أنها تتضمن كل ما قيل فيها، ويتصف المقربون بكل ما قيل فيها: إن السائحين هم الصابرون، وقد جاء عن عائشة رضى الله عنها: (سياحة هذه الأمة الصيام)، لأنه رياضة روحية ينكشف بها كثير من أحوال الملك والملكوت، فشبه الإطلاع عليها بالإطلاع على البلدان، والأماكن النائية، إذ لا يزال المرتاض يتوصل من مقام إلى مقام ويدخل من مدائن المعارف إلى مدينة بعد أخرى على مطايا الفكر[١].

والسائحون المهاجرون:

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد: أن السائحين هم المهاجرون وليس فى أمة محمد ﷺ سياحة إلا الهجرة.

وأخرج ابن أبى حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة: أنهم طلبة العلم، لأنهم يسيحون فى الأرض لطلبه.

والسائحون هم المجاهدون:

أخرج الحاكم وصححه، والطبرانى، غيرهما، عن أبى أمامة، أن رجلاً استأذن رسول الله ﷺ فى السياحة فقال:

(إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله)

والمقربون راكعون ساجدون : إنهم راكعون ساجدون فى صلواتهم وهاتان الصفتان رمزان للخضوع والخشوع لله تعالى، وكما أن من معانى السجود وضع الجبهة على الأرض فى الصلاة فإن من معانيه الخشية، والخضوع، والسجود بهذه المعانى كلها من سمات المقربين الأصيلة، يقول سبحانه: (واسجد واقترب) أى اقترب من الله سبحانه وتعالى بسجودك، سجود الجبهة، وسجود القلب الذى تسجد بسجوده الجوارح، وإن للقلب سجودا يعرفه الصوفية، وإذا سجد القلب سجدت الجوارح، ولا يتأتى مع سجود القلب والجوارح أن يقترف الإنسان

---

(١) تفسير الألوسى ج ١ ص ٣١

المعصية، وإذا سجد القلب فمعنى ذلك حسن الخاتمة بتوفيق الله تعالى، وذلك أنه إذا سجد فإنه لا يرفع من سجوده إلا بلقاء الله تعالى، وما دام ساجدا فإنه هو والجوارح فى جو دائم من رضاء الله تعالى، لأنه هو والجوارح فى جو دائم من خشية الله تعالى، ويقول رسول الله ﷺ:

(أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)[1].

وكثرة السجود طريق إلى الجنة:

روى الإمام مسلم هذا الحديث اللطيف الرائع:

عن أبى فراس ربيعة بن كعب الأسلمى- خادم رسول الله ﷺ وهو من أهل الصفة ﷺقال:

كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيه بوضوئه وحاجته فقال: سلنى؟

فقلت: أسألك مرافقتك فى الجنة.

فقال: أو غير ذلك؟

قلت : هو ذاك.

قال ﷺ : (أعنى على نفسك بكثرة السجود)

وذلك يعن: أعنى على نزعاتك وأهوائك بسلوكك طريق الخشية وأصل مظهر له: السجود، فإذا ما وصل الإنسان إلى السجود فقد وصل إلى منتهى التواضع لله سبحانه وتعالى، إنه وصل إلى العبودية فى أظهر مظاهرها، ووصل فى الوقت نفسه إلى أقرب ما يكون العبد من ربه وعندئذ يترتب على ذلك مسئوليته فتكون:

(الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر).

وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ- فيما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى- ﷺ: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان).

وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

(ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لايفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن،

---

(١) وتمام الحديث: فأكثروا فيه من الدعاء، وهو حديث صحيح أخرجه مسلم فى صحيحه وأبو داود فى سننه والنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل).

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى من عوامل خيرية الأمة الإسلامية: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

فقال تعالى:(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله).[1].

ولقد لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان عدة رسل منهم: داود وعيسى ابن مريم عليهما السلام، لأنهم ما كانوا ينهون عن المنكر فقال سبحانه: (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ،كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)[2].

وثمرة السجود الحقيقى إذن: (الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر).

وإنه لمن الملاحظ الواضح أن المدارس الصوفية الصادقة التىتسمى الطرق مهمتها الأولى: الدعوة إلى الله المتضمنة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهؤلاء المقربون من دورهم الأصيل ما عبر الله سبحانه وتعالى عنه بقوله:

(والحافظون لحدود الله).

ورسول الله ﷺ يقول:

(لا تزال طائفة من أمتى قوامة على أمر الله لا يضرها من خالفها)[3].

وفى رواية : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة[4].

ولكن الأسلوب القرآنى المعجز بدأ كل هذه الصفات بأعظم صفة للمقربين، إنه سبحانه قبل أن يشرع فى تعداد صفاتهم التى بدأها بقوله: (التائبون)قال: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والأنجيل

---

(١) آل عمران: ١١٠

(٢) المائدة آية: ٧٨، ٧٩

(٣) رواه ابن ماجه

(٤) رواه الحاكم فى المستدرك

والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)[1].

إن المؤمن فى عقد الإيمان باع نفسه وماله لله، وهذا العقد بينه وبين الله: فالمؤمن هو البائع!

والشارى هو الله ! والمبيع هو النفس والمال !

والثمن هو الجنة، أى على هذا النوع من النعيم الذى بلغ من النقاسة إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!

أما مكان التسليم فإنه المعركة، ورسول الله ﷺ يقول:

(الجنة تحت ظل السيوف)

وليس من شروط هذا العقد أن يستشهد المقاتل، كلا !

فمن قاتل وانتصر وعاد سالما فله الجنة،..... إن الجنة للمقاتل سواء استشهد أو انتصر وعاد إلى بيته.....

ولقد روى الحسن ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: فيما يتعلق ببيع النفس:-

(إن فوق كل بر بر حتى يبذل العبد دمه، فإذا فعل ذلك فلا بر فوق ذلك)

وقال الشاعر - عن بيع النفس:-

الجود بالمال جود فيه مكرمة والجود بالنفس أقصى غاية الجود!

وقال الحسن: مر أعرابى على النبى ﷺ وهو يقرأ هذه الآية:

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ...)

فقال: كلام من هذا؟

قال: كلام الله.

قال: بيع والله مربح، لا نقيله ولا نستقيله- فخرج إلى الغزو واستشهد، ولقد سجل الله هذا العقد فى التوارة والإنجيل فقال:

(وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به)

ولأجل ذلك حينما سمع الصحابة هذه الآية الكريمة قالوا:

(ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل)

أما التقدير الصادق لهذا العقد، فإنه الذى قرره الله سبحانه وتعالى بقوله:

---

(1) التوبة آية: ١١١

(وذلك هو الفوز العظيم)

وإذا وقف أهل اليمين- بعد التوبة - عند العبادة المفروضة أو عندها وعند سنتها الراتبة فإن المقربين- وقد ذكرنا من صفاتهم مع العبادة المفروضة، أنهم:

(الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله).

وقد يتساءل إنسان:

أليس للمقربين صفات أخرى غير هذه؟

والواقع أن للمقربين صفات جميلة أخرى كثيرة، ولكن صفاتهم فى جوهرها الأصيل تنطوى فى صفة (الساجدون) حين تفهم من السجود، سجود القلب وسجود الجوارح بسجوده، وكل هذه الصفات تتبلور فى تفسير رسول الله ﷺ للإسلام.

(أن يسلم لله قلبك، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك).

وتتبلور فى (إياك نعبد وإياك نستعين).

وتتبلور فى التوحيد الذى يتناسق معه الشبلى فيعرف التصوف بأنه (بدؤه معرفة الله ونهايته توحيده)، ولكنها تتبلور فى صورة هى قمتها وهى:

(أشهد أن لا إله إلا الله)

هذه الشهادة التى معها الإمام الكتانى يعرف التصوف بأنه:

(صفاء ومشاهدة).

ومن اجتباهم الله تعالى تقودهم توبتهم العميقة إلى الذكر، وإذا كان لأركان الإسلام نفلها وسنتها: صلاة التطوع وصيام التطوع... الخ فإن نفل الركن الأول منها: الذكر، ذكر الله تعالى بكل طرقه وذكره سبحانه عن طريق الصلاة على رسول الله ﷺ، وذلك أنه سبحانه وتعالى أمر بها.

والركن الأول هو: (أشهد أن لا إله إلا الله سبحانه وتعالى، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ﷺ ، وكما أن الركن الأول أهم الأركان وأساسها، فإن نفله أهم السنن، ومن هنا كان اهتمام الإسلام بالذكر اهتماما لا حدود له.

يقول الإمام القشيرى وهو من زعماء الصوفية وكبار كتابهم:

(والذكر ركن قوى فى طريق الحق سبحانه) ، ثم يستدرك الإمام القشيرى ليكون أكثر دقة فيقول (بل هو العمدة فى هذا الطريق).

سئم يحسم الأمر حسما فيقول: (ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر).

أما عن حدود الذكر فإن الإمام القشيرى يقول: ومن خصائص الذكر:

إنه غير مؤقت، بل ما من وقت من الأوقات إلا والعبد مأمور بذكر الله؛ إما فرضا، وإما ندبا، والصلاة وإن كانت أشرف العبادات فقد لاتجوز فى بعض الأوقات. والذكر بالقلب مستدام فى عموم الحالات.أ. هـ.

وللإمام الصاوى الرجل العالم الصالح صاحب الحاشية المباركة على تفسير (الجلالين) توجيهات نفسيه فيما يتعلق بالذكر ، إنه يقول:

ولا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، فربما ذكر مع غفلة يجر لذكر مع حضور، لأنهم شبهوا الذكر بقدح الزناد، لا يترك الإنسان القدح لعدم إيقاده من أول مرة مثلا، بل يكرر حتى يوقد فإذا ولع القلب نارت الأعضاء فلا يقدر الشيطان على وسوسته، لقوله تعالى:

(إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا)[1].

وخفت العبادة على الأعضاء، فلا يكون على الشخص كلفة فيها، قال العارف:

إذا رفع الحجاب فلا ملالة بتوفيق الإله ولا مشقة

ويكفى الذاكر من الشرف، قول الله تعالى فى حديث قدسى:

(أنا جليس من ذكرنى)[2].

وقوله تعالى: (واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)[3].

ويقول الإمام النووى: (الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان)

والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعا، فإن اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل، ثم لا ينبغى أن يترك الذكر باللسان مع القلب خوفا من أن يظن به الرياء، بل يذكر بهما جميعا ويقصد وجه الله تعالى وقد قدمنا عن الفضيل رحمه الله : (أن ترك العمل لأجل الناس رياء).

---

(١) الأعراف آية : ٢٠١

(٢) رواه الديلمى عن عائشة مرفوعا، وأخرجه أبو الشيخ عن محمدبن نظر الحارثى، ورواه الحاكم وصححه عن أنس بلفظ الله تعالى: (عبدى أنا عند ظنك بى، وأنا معك إذا ذكرتنى). وروى أحمد وابن ماجه بسند صحيح (أنا مع عبدى ما ذكرنى)

(٣) الأنفال آية: ٤٥.

ولو فتح الإنسان عليه باب الملاحظة للناس، والاحتراز من تطرق ظنونهم الباطلة لا نسد عليه أكثر أبواب الخير، وضيع على نفسه شيئاً عظيما من مهمات الدين، وليس هذا طريقة العارفين.[1] أ. هـ

وهؤلاء جميعاً يتسابقون القرآن، ويتناسقون معه وذلك أن القرآن الكريم لم يعين للذكر وقتا معينا، وذلك أن جميع الأوقات صالحة للذكر، يقول الله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً).

لقد جعل الله سبحانه جميع آناء الليل والنهار صالحة للذكر: يقول بن عباس فى قوله تعالى: (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ)[2].

يقول:أى بالليل والنهار، فى البر والبحر، والسفر والحضر،والغنى والفقر، والمرض والصحة، والسر والعلانية.

والآيات فى القرآن كثيرة تبين أن ذكر الله مستحب فى جميع الأمكنة والأزمنة وفى هذا المعنى يقول فى أوصاف أولى الألباب:

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ،رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ،رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)[3].

وأما عن ذكر اللسان وذكر القلب فإن صاحب الرسالة القشيرية يقول:

(فإذا كان العبد ذاكرا بلسانه وقلبه: فهو الكامل فى وصفه فى حالة سلوكه).

وإذا كان المسلمون يتابعون القرآن ويتناسقون معه فى موضوع الذكر، فإنهم فى كل ذلك يقتدون برسول الله ﷺ ويتخذونه قدوة، وهو إمام الذاكرين وإمام كل المقبلين على طريق الله تعالى ولم يصل ولن يصل إنسان إلى الله تعالى منذ أرسل صلوات الله وسلامه عليه إلى أن يرث الله الأرض من عليها إلا عن طريقه ﷺ .

---

(١) حاشية الصاوى على الجلالين حـ ١ ص ٩٣.

(٢) النساء آية: ١٠٣

(٣) آل عمران آية : ١٩١- ١٩٤

صفات عباد الرحمن

(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)[١].

وبعد أن ذكر الله فى الآية السابقة جعله الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا، ناسب بعد ذلك أن يتكلم على أوصاف المؤمنين ومدى طاعتهم لله سبحانه وتعالى، وشكرهم وذكرهم وحسن عبادتهم واجتنابهم للمحرمات.

وعباد الرحمن: مبتدأ خبره (أولئك يجزون الغرفة)، أو خبره الموصول بعده، وعباد جميع عبد، كبحار جمع بحر، من العبودية وهى الرضا بما يفعله الرب.

وقال الراغب: العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ويمكن اعتبار المعنيين فى تفسير العبادة، لأن الرضا بما يفعله الرب هو غاية التذلل.

(الذين يمشون على الأرض هونا) وهو صفة لمصدر محذوف، أى مشيا هونا، أو حال من فاعل يمشون، أى يمشوا هينين فى غاية التواضع والسكينة، لا يخفقون بنعالهم ولا يضربون الأرض بأرجلهم غرورا وخيلاء.

والهون مصدر بمعنى اللين، ووضعه موضع الصفة زيادة فى المبالغة.

(وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) لما بين الله حال المؤمن فى خاصة نفسه ذكر حاله مع أفراد المجتمع، وأن الحلم هو مثال من أمثلة الأخلاق الإسلامية التى يجب أن تتبع، والمراد أنه إذا هاجمهم أحد من الناس أو اعتدى عليهم لم يردوا السيئة بالسيئة، ولم يعتدوا عليه اعتداء بهيميا، ولكنهم دائما خلقهم الحلم والترفع مع الإيمان والثقة فى أن الله سينتقم من هؤلاء الجاهلين، وهذا ما فيه من السعادة فى الآخرة والأولى، وليس معنى ذلك أن الحلم يؤخذ به فى جميع الأمور وجميع الحوادث، فإن الغضب لأمور الشريعة والدين والعرض والكرامة يجب على الإنسان، فإن تعرض المؤمن للهوان والضياع، فالغضب لهذا مما يوجب عليه.

وسلاما: مصدر وضع التسليم، ومؤكد لفعله المضمر، والتقديم نسلم منكم تسليما، والمعنى إذ واجههم السفهاء بالشئ من القول والفحش

---

(١) الفرقان آية: ٦٣

من اللسان،قالوا لهم: سلاما، أى تسليما منكم وهو سلام متاركة وبعد، لا سلام تحية.

لقد تضمنت الآية الكريمة صفتين من أهم صفات المؤمنين وأجلها:

أولاهما: السكينة، والثانية: التواضع، ونجد ذلك فى كثير من الأحاديث النبوية التى تحض على ذلك وتحث عليه فذكر منها:

عن ابن مسعود ﷺ قال:

كأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى نبيا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول:

(اللهم أغفر لقومى فإنهم لا يعلمون)[١].

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها قالت: (ما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده ولا امرأة ولا خادما إلا أن يجاهد فى سبيل الله وما نيل منه شئ قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شئ من محارم الله تعالى فينتقم لله تعالى)[٢].

وعن عياض ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

(إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على احد)[٣].

وعن أبى هريرة ﷺأن رسول الله ﷺ قال:

(ما أنقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)[٤].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبى ﷺ قال:

لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: أن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة:

قال: (إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس)[٥].

---

(١) أخرجه الشيخان فى صحيحيهما

(٢) رواه مسلم فى صحيحه

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه.

(٤) أخرجه مسلم

(٥) رواه مسلم.

وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ، عن النبى ﷺ قال: احتجت الجنة والنار فقالت النار: فى الجبارون والمتكبرون.

وقالت الجنة: فى ضعفاء الناس ومساكينهم، فقضى الله بينهما أنك الجنة رحمتى أرحم بك من أشاء، وأنك النار عذابى بك من أشاء، ولكلتيكما على ملؤها)[١].

وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

(ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد يملك نفسه عند الغضب)[٢].

ثم يقول الله تعالى: (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما)[٣].

البيتوتة: أن يدركك الليل، نمت أو لم تنم، قال الزجاج: كل من أدركه الليل قيل بات وإن لم ينم، كما يقال بات فلان قلقا.

وقياما جمع قائم كصيام جمع صائم، أو مصدر أجرى مجراه.

وسجدا جمع ساجد كضرب فى ضارب وهو خبر ليبيتون.

قال العلامة الجمل فى حاشيته على الجلالين:

ويضعف أن تكون تامة، أى يدخلون فى البيانات، وسجدا حال، ولربهم متعلق بسجدا: وقدم للفاصلة والتخصيص، أى يبيتون ساجدين قائمين لربهم سبحانه.

وذكروا هذا الوصف دون لفظ الجلالة للإشارة إلى قيامهم بخدمة سيدهم وغامرهم بإحسانه ومربيهم.

وتخصيص البيتوتة: لأن العبادة فى الليل أحمز وأبعد عن الرياء.

وعندى أن تقديم سجدا على قياما لأن السجود أكمل درجات الخشوع، ولأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد.

وهذا الوصف من الآية للمؤمنين هو وصف لحالهم مع ربهم، بعد أن وصف فيما سبق حالهم فى تعاملهم مع الخلق، فإن كل هم هؤلاء العباد هو إحراز رضا الله سبحانه وتعالى، والتقرب منه، سواء فى معاملتهم مع الناس، أو مع الله سبحانه وتعالى، بخلاف غيرهم الذين يقضون الليل فى اللهو والفراغ، والبعد عن الله سبحانه وتعالى:

ورد عن الشيخان عن السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها أن النبى ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له:

---

(١) أخرجه الإمام مسلم
(٢) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما
(٣) الفرقان آية: ٦٤

(لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

قال: (أفلا أكون عبدا شكورا)

وروى الشيخان عن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال:

(نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلى من الليل، قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلا)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، قال قال رسول الله ﷺ:

(يا عبد الله لا تكون مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل)[١].

وعن عبد الله بن سلام ﷺ أن النبى ﷺ قال:

(أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)[٢].

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ، كان ينام أول الليل، ويقوم آخره فيصلى[٣].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال:

(أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوما ويفطر يوما)[٤].

وعن أبى هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ:

(أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل)[٥].

---

(١) رواه البخارى ومسلم
(٢) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح
(٣) رواه البخارى ومسلم
(٤) أخرجه البخارى ومسلم
(٥) رواه مسلم

وعن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نظن ألا يصوم منه، ويصوم حتى نظن ألا يفطر منه شيئا.

وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصليا إلا رأيته، ولا نائما إلا رأيته[1].

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً)[2].

بعد أن مدح الله سبحانه وتعالى عباده بقيام الليل وسجودهم له، ذكر خوفهم وخشيتهم من عقابه وعذابه فهم لم يفتروا بعبادتهم إياه، ولم يروا فيها سبباً لدخولهم الجنة، بل يرون أن النجاة من عذاب الله يكون بفضل الله وبرحمته.

والغرام – كما فى الصحاح – الشر الدائم والعذاب، وقوله تعالى:

(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً)

قال أبو عبيد : أى هلاكا ولزاما أ.هـ

وقال الزمخشرى: أى هلاكا وخسرانا ملحا لازما.

والمعنى والذين يقولون فى أغلب وأعم أوقاتهم طالبين من الله ومتضرعين إليه سبحانه وتعالى، وأن لا يكون جزاؤهم جنهم، فقد قال الله سبحانه وتعالى معبراً عن هذا المعنى:

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)[3].

وهذا مدح لهم لأنه تحقيق لإيمانهم بالجزاء.

أحاديث فى وصف عذاب جهنم:

أخرج الترمذى والبخارى فى تاريخه عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ :

(لجهنم سبعة أبواب منها باب لمن سل السيف على أمتى)

وروى الطبرانى فى الأوسط: أن جبريل جاء إلى النبى ﷺ فقال:

(يا جبريل مالى أراك مغير اللون؟)

فقال : ما جئتك حتى أمر الله عز وجل منافح النار، فقال ﷺ:

(يا جبريل : صف لى النار أو انعت جهنم):

---

(1) رواه البخارى فى صحيحه

(2) الفرقان آية : ٦٥، ٦٦.

(3) المؤمنون آية : ٦٠

فقال جبريل: إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهى سوداء مظلمة لا يضئ شررها ولا يطفأ لهبها.

(والذى بعثك بالحق نبيا: لو أن قدر ثقب إبرة: فتح من جهنم لمات من فى الأرض كلهم جميعا)

(والذى بعثك بالحق: لو أن خازنا من خزنة جهنم برز إلى أهل الدنيا لمات من فى الأرض كلهم جميعا: من قبح وجهه ونتن ريحه)

(والذى بعثك بالحق: لو أن حلقة من حلق سلسل أهل النار الذى نعت الله فى كتابه: وضعت على جبال الدنيا: لا رفضت : وما تقارن: حتى تنتهى إلى الأرض السفلى، فقال رسول الله ﷺ:

(حسبى يا جبريل: لا يتصدع قلبى فأموت).

قال: فنظر رسول الله ﷺ، إلى جبريل وهو يبكى: فقال تبكى يا جبريل وأنت من الله بالمكان الذى أنت به؟

فقال : وما لى لا أبكى: وأنا أحق بالبكاء: لعلى أكون فى علم الله: على غير الحالة التى أنا عليها، وما أدرى لعلى أبتلى بما ابتلى به إبليس، فقد كان من الملائكة وما أدرى لعلى أبتلى بما أبتلى به هاروت وماروت.

قال: فبكى النبى ﷺ: وبكى جبريل: فما زالا يبكيان حتى نودى: أن يا جبريل ويا محمد: إن الله آمنكما أن تعصياه: فارتفع جبريل، وخرج رسول الله ﷺ : فمر بقوم من الأنصار يضحكون ويلعبون.

فقال: أتضحكون وتلعبون ووراءكم جهنم، فلو تعلمون ما أعلم: لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، ولما أسقم الطعام والشراب ولخرجتم إلى الصعدات، تجأرون إلى الله عز وجل:

(فنودى: يا محمد: لا تقنط عبادى: إنما بعثتك مبشرا ولم أبعثك معسرا)

فقال ﷺ سددوا وقاربوا.

وأخرج أحمد والطبرانى وابن حبان: فى صحيحه: والحاكم وصححه:

(أن فى النار حيات كأمثال أعناق البخت).

تلسع إحداهن اللسعة فيجد حرها سبعون خريفا.

وأن فى النار عقارب كأمثال البغال الموكفة تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموها أربعين سنة.

فإذا قرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه.

وأخرج الترمذى: قال حسن صحيح غريب:

إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما فى جوفه حتى يمرق من قدميه: وهو الصهر: ثم يعاد كما كان : والحميم الماء الحار: الذى يحرق.

وقال الضحاك: الحميم يغلى منذ خلق السموات والأرض إلى يوم القيامة يسقونه: ويصب على رؤوسهم.

وقيل ما يجتمع من دموع أعينهم فى حياض النار فيسقونه:

وقيل غير ذلك : وهو المذكور فى قوله تبارك وتعالى:

(وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم)[1].

وأخرج أحمد والترمذى، وقال غريب، والحاكم، وقال صحيح على شرط مسلم: عن رسول الله ﷺ فى قوله سبحانه وتعالى: (ويسقى من ماء صديد، يتجرعه ولا يكاد يسيغه)[2].

قال يقرب إلى فيه: فيكرهه، فإذا أدنى منه: شوى وجهه، وقعت فروة رأسه: فإذا شربه قطع أمعاءه: حتى يخرج من دبره، قال الله عز وجل: (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم)

وقال جل ذكره:

(وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب)[3].

أخرج الترمذى: وقال حسن صحيح : أنه ﷺ قرأ هذه الآية:

(اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون)هى[4].

فقال ﷺ : لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا: لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن يكون طعامه.

وفى رواية: فكيف بمن ليس له طعام غيره؟

وصح عن ابن عباس رضى الله عنهما: فى قوله تعالى: وطعاما ذا غصة): شوك: يأخذ بالحلق: لا يدخل ولا يخرج.

أخرج الشيخان: ما بين منكبى الكافر مسيرة ثلاثة أيام: للراكب المسرع: والمنكب : مجمع رأس الكتف والعضد.

---

(١) سورة محمد آية : ١٥.
(٢) إبراهيم آية: ١٦، ١٧
(٣) سورة الكهف آية ٢٩
(٤) آل عمران آية ١٠٢

وأخرج مسلم: ضرس: أو قال: ناب الكافر مثل أحد: وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام.

(والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما)[1].

لقد مدح الله فى الآية الماضية عباد الرحمن بأنهم يخافون يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، وأنهم يرجون رحمة ربهم ويخافون عذابه وهم يعتبرون هذه الدنيا وسيلة إلى غيرها من نعيم الآخرة،وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم لا يهتمون بهذه الدنيا فلم يسرفوا فيها، والمقصود بالإسراف هنا جميع أنواع الإسراف فى الملذات الحلال أى حبها حبا شديد الدرجة الإسراف فيها.

ولم يقتروا: الأقتار هنا يشمل حب الدنيا أيضا، فإن البخل حب للأموال ومحاولة الخلود فى الحياة الدنيا، والإبقاء إلى أبد الأبدين.

ولكنهم وسط بين هؤلاء وهؤلاء، لم يسرفوا فى محرم، ولا فى شهوات،ولم يقتروا على حلال ولا على صدقة وزكاة.

وتساعد على هذا المعنى الأحاديث التالية:

أخرج أحمد والطبرانى عن أبى الدرداء: عن النبى ﷺ قال: (من فقه الرجل أفقه فى معيشته).

واخرج ابن ماجه فى سننه عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

(إن من السرف: أن تاكل كل ما اشتهيت)

ومما يساعد على المعنى قوله تعالى:

(ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط)[2].

(والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما)[3].

(ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا)[4].

وإذا كانت هذه الآيات فيها دلالة قوية ومبينة عن أن الإسلام هو دين الوسطية، فإن الأحاديث التالية، تبين معنى الآية التى فى أيدينا بتوضيح لا يدع مجالا لشك، وتبين النموذج الذى يجب أن يحتذى إسلاميا بالنسبة للفظ (قواما).

---

(١) الفرقان آية : ٦٧
(٢) الإسراء آية : ٢٩
(٣) الفرقان آية: ٦٧
(٤) الإسراء آية: ١١٠.

روى البخارى ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ:
(أيكم مال وراثة أحب إليه من ماله؟
قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه قال:
فإن ماله ما قدم، ومال وراثة ما أخذ)

وروى الشيخان عن عدى ابن حاتم ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:
(أتقو النار ولو بشق تمرة)

وروى الشيخان عن جابر ﷺ قال:ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال:لا وروى الشيخان عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما:
(اللهم أعط منفقا خلفا)
ويقول الآخر: (اللهم أعط ممسكا تلفا).

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: انفق يا بن آدم ينفق عليك (متفق عليه)

وروى الشيخان، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : أى الإسلام خير؟
فقال: (تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف).

وروى الشيخان عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال:
(لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها).

عن أبى إمامة ﷺقال : قال رسول الله ﷺ:
(يا ابن آدم أن تبذل الفضل خير لك وأن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى)[1].

(والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما، ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا)[2].

---

(1) أخرجه أحمد فى مسنده،والطبرانى فى المعجم الكبير.
(2) الفرقان آية: ٦٩ - ٧١.

والذين لا يشركون بالله سبحانه وتعالى إلها آخر، يجعلونهم شركاء له فى العبادة، ولا يقتلون أحد إلا إذا كان يستحق القتل شرعا، كما فى حالة الجهاد فى سبيل الله ولا يطؤون فرجا محرما عليهم، والزنا فى عرف اللغة والشرع: إدخال المكلف الطائع حشفته فى قبل مشتهاة حلالا أو ماضيا بلا ملك أو شبهة أو تمكينه من ذلك أو تمكينها فى دار الإسلام، فعلم أنه لا زنا للصبى والمجنون - أى موجب للحد - ومن أكرهه السلطان،ولا للمولج فى دبر أو فى فرج صغيرة غير مشتهاة أو ميتة أو بهيمة، ولمن كان فى دار الحرب، ولا لمن زنا مع شبهة، وهو من أمهات الكبائر، ولذا قرنه الله بالشرك وقتل النفسى فى هذه الآية.

وقد جاء الله سبحانه وتعالى بنفى هذه الجملة من المعاصى عن المؤمن كمناسبة لما ذكره الله سبحانه وتعالى عن المؤمنين من الاعتدال فى النفقة فكان الاعتدال بالبعد عن المعاصى هو الأولى ذكره بعد ذلك.

يقول العلامة زادة فى حاشيته على البيضاوى:
كأنه جواب عما يقال: ما الفائدة فى نفى هذه القبائح عن الموصوفين بالخصال المرضية السابقة، مع أنهم يبعد منهم ارتكاب: هذه القبائح فلا وجه إذا لنفيها عنهم، لأنه إنما يحسن نفى صفة عن أحد إذا كانت الصفة المنفية مما يتوهم ثبوتها له؟

وتقرير الجواب أن الاتصاف بالفضائل السابقة لا يستلزم الاجتناب عن هذه القبائح،فإن الموصوف بتلك الصفات قد يتدين بالشرك ويقتل النفس بغير الحق ويتلبس بالزنا.

فبين الله أن المرء لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن حتى يجتنب الكبائر أيضا، إلا أنه خص من الكبائر أمهاتها، واشعر بذلك أن الأجر المذكور فى قوله (أولئك يجزون الغرفة) موعود للجامعين بين ذلك.

(وفى هذا النفى تعريض بما كان عليه الكفار، كأنه قيل وعباد الرحمن هم: الذين لا يدعون مع الله، أنتم تدعون، ولا يقتلون نفسا بغير حق وأنتم تقتلون، ولا يزنون وأنتم تزنون، ويحسن النفى تعريضا وإن لم يكن النفى عنه مظنة لثبوت المنفى له).

ويقول الإمام الألوسى:
والمراد من نفى هذه القبائح عنهم التعريض به لما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم وإلا فى حاجة إليه بعد وصفهم بالصفات

المتقدمة من حسن المعاملة، وإحياء الليل بالصلاة، ومزيد خوفهم من الله لظهور استدعائها واستلزمها نفى ما ذكر عنهم.

ومن هذا يعلم هل ما قيل الظاهر عكس هذا الترتيب وتقديم التحلية على التخلية، فكأنه قيل: الذين طهرهم الله وبرأهم مما أنتم عليه من الإشراك، وقتل النفس المحرمة، كالموؤدة والزنا.

وقيل: إن التصريح بنفى الإشراك مع ظهور إيمانهم لهذا، أو لإظهار كمال الاعتناء والإخلاص وتهويل أمر القتل والزنا بنظمهما فى سلكه.

وقد صح رواية الشيخين والترمذى عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أى ذنب أكبر ، فقال: (أن تجعل لله تعالى ندا وهو خلقك).

قلت: ثم أى؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك.

قلت: ثم أى؟ قال: أن تزانى حليلة جارك، فأنزل الله تصديق ذلك: (والذين لا يدعون: الآية).

وأخرج الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ناسا من أهل الشرك قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمدا ﷺ فقالوا: (إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت: (والذين لا يدعون الآية) ونزلت: (قل يا عبادى الذين أسرفوا: الآية).

وجاز أن يقال فى وجه تقديم التخلية على التحلية: كون الأوصاف المذكورة فى التخلية أوفق بالعبودية التى جعلت عنوان الموضوع لظهور دلالتها على ترك الأنانية، ومزيد الانقياد، والخوف والاقتصاد فى التصرف، بما إذن المولى بالتصرف فيه، ولا يأبى هذا قصد التعريض بما ذكر فى التخلية ويؤيد هذا القصد التعقيب بقوله عز وجل(ومن يفعل ذلك: الآية) أ.هـ

فإذا فعل أحد هذه الأمور التى تقدمت يلاقى عذابا عظيما فيضاعف له هذا العذاب ويخلد فيه مهانا، بالذنوب التى اقترفها، لأنه ضاعف الذنوب فضوعفت له العقوبة.

ومن تاب عن الشرك، وآمن بالله وبرسوله، وكتابه، وعمل عملا صالحا، بدل الأعمال السيئة التى اقترفها، فأولئك يتجاوز الله عن سيئاتهم التى عملوها ويغفر لهم، وكان الله غفورا رحيما عن السيئات، رحيما بتبديلها بالحسنات، ومن تاب عن جميع المعاصى وعمل صالحا يكفر به

عن سيئاته، فإنه يرجع إلى الله عصمته وسبل هدايته ورشاده، ينجيه من عقاب الله ومن عذابه.

وإذا كان لنا أن نتعرض بشئ من التفصيل لموضوع التوبة باعتبارها التى يكفر بها الله سبحانه وتعالى ما أرتكبه عباده العاصون من الذنوب، فإننا نذكر الآيات القرآنية التى تتعلق بهذا.

التوبة: كالتوب والمتاب ، مصدر تاب، أى رجع إلى الله تعالى، وتحول عن المعصية إلى الطاعة: قال تعالى:

(غافر الذنب وقابل التوب[١]) وقال:

(قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب[٢]).

وقال تعالى: (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما)[٣]،وهى واجبة على العبد لظاهر قوله تعالى:

(وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون[٤]).

وهى ما حية للذنوب:

(يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم)[٥].

الأحاديث المتعلقة بالآيات:

الشرك: عن زيد بن أسلم ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

(من غير دينه، فاضربوا عنقه) أخرجه مالك : قال:

(الأمر عندنا، أن من خرج من الإسلام إلى الردة : أن يستتاب فإن تاب، وإلا قتل.

قال: ومعنى قوله ﷺ : (من ترك دينه فاقتلوه) ، أى من خرج من الإسلام إلى غيره، لا من خرج من دين غير الإسلام إلى غيره كمن خرج من يهودية إلى نصرانية، أو مجوسية ومن فعل ذلك من أهل الذمة: لم يستتب ولم يقتل.

---

(١) غافر آية : ٣

(٢) الرعد آية : ٣٠

(٣) النساء آية: ١٧

(٤) النور آية : ٣١

(٥) التحريم آية: ٨

وعن أنس ﷺ: أن ناسا من عكل وعرينه قدموا على النبى ﷺ: وتكلموا بالإسلام وقالوا يا رسول الله:

إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف: واستوخموا المدينة فأمر لهم بذود وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه: فشربوا من ألبانها وأبوالها فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرة، كفروا بعد إسلامهم. وقتلوا راعى النبى ﷺ ، واستاقوا الذود، فبلغ ذلك النبى ﷺ ، فبعث الطلب فى آثارهم فأمر بهم ، فسمروا أعينهم، وقطعوا أيديهم وتركوا فى ناحية الحرة: حتى ماتوا على حالهم[١].

القتل: عن سعيد بن العاص ﷺ، عن بن عمر رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ : (لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما)

وقال عمر رضى الله عنهما:

(إن من ورطاط الأمور التى لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حل[٢]).

وأخرج أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (الإيمان قيد الفتك، لا يتفك مؤمن)[٣] وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله(ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها: لأنه أول من سن القتل)[٤].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

لا يحل دم امرئ مسلم ، شهد أن لا إلا الله وانى رسول الله: عدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه، والمفارق للجماعة[٥].

الزنا: روى عن بعض الصحابة: أنه قال: إياكم والزنا فإن فيه ست خصال: ثلاثة فى الدنيا وثلاثة فى الآخرة: فأما التى فى الدنيا فنقصان الرزق، وقطع الأجل، وسواد الوجه.

---

(١) أخرجه الخمسة
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه.
(٣) أخرجه البخارى فى التاريخ، وأبو داود فى سننه، والحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة، وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن الزبير وعن معاوية.
(٤) أخرجه الخمسة
(٥) أخرجه الخمسة

وأما التى فى الآخرة فغضب الله وشدة الحساب، ودخول النار.

وروى أن موسى عليه السلام قال: يا رب مالى من زنا؟ قال الله تعالى ألبسه درعا من النار، لو وضع على جبل شاهق لأصبح رمادا.

وعن أنس بن مالك ﷺعن النبى ﷺ : أنه قال : من لاط لا يجد رائحة الجنة، وأن رائحتها التوبة من مسيرة خمسمائة عام.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: لا ينظر الله تعالى إلى رجل أتى رجلا أو امرأة فى دبرها[١].

وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به[٢].

وجاء فى الحديث الشريف عن ابن عمر ﷺ:

قال : أقبل علينا رسول الله ﷺ: فقال يا معشر المهاجرين، خمس خصال: إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن.

لم تظهر الفاحشة فى قوم قط: حتى يعلنوا بها إلا فشى فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا[٣]... الحديث.

وعن أبى هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال:

لعن الله سبعة من خلقه: من فوق سبع سمواته: وردد اللعنة على واحد منهم ثلاثا،ولعن كل واحد منهم لعنة تكفيه قال:

معلون من عمل عمل قوط لوط، معلون من عمل عمل قوم لوط، ملعون من عمل عمل قوم لوط، معلون من ذبح لغير الله، ملعون من أتى شيئا من البهائم، ملعون من عق والديه، ملعون من جمع بين امرأة وابنتها، ملعون من غير حدود الأرض، ملعون من ادعى لغير مواليه.

التوبة: عن أبى هريرة ﷺ: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(والله أنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة)[٤].

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه
(٢) أخرجه أبو داود والترمذى فى سننيهما وابن ماجه وأحمد والحاكم والبيهقى
(٣) أخرجه الحاكم والبيهقى.
(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه.

عن أبى حمزة أنس بن ملك الأنصارى أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد اضل فى أرض فلاه)[١].

وفى رواية لمسلم: (الله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاه، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى منها فأتى شجرة فأضجع فى ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك: إذا هو بها: قائمة عنده، فأشد بخطامها ثم قال من شدة الفرح:

(اللهم أنت عبدى وأنا ربك: أخطأ من شدة الفرح)[٢]

(والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما)[٣].

ذكر الله سبحانه وتعالى نوعين من الذنوب يجتنبها المؤمن ويبعد عنهما عباد الرحمن بعد أن ذكر حكم التوبة من السيئات.

هاتان الصيغتان هما: شهادة الزور، وعدم الاهتمام باللغو والتجاوز عنه.

وقد ركز الله سبحانه وتعالى على شهادة الزور نظرا لدخولها فى كثير من الأحكام الشرعية التى تحتاج إلى الشهادة كالزنا والقتل والسرقة وغيرهم.

وأيضا ركزت الآية على اللغو الذى يدخل فيه الكذب، والقول الفاحش، وانتهاك حرمات المسلمين.

والمعنى المراد:

والذين لا يشهدون شهادة الزور، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه لينصب على أنه صفة له.

ولا يحضرون مواضع الكذب أو الغناء مأخوذ من الشهود والأول من الشهادة:

لأنه مساعدة لأهل الباطل على ما هم فيه ووجودهم معهم دليل على استحسانه والرضا به، وعلى المؤمن أن يترفع بنفسه عن مخالطة

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما
(٢) مسلم فى صحيحه
(٣) الفرقان آية ٧٢.

أهل الشر ومشاركتهم فى باطلهم، لأن من حام حول الحمى: يوشك أن يقع فيه[١].

ويصح أن يكون المراد من الزور: كل شئ باطل، مائل عن الحق، من الازوار كالشرك، والكذب، الغناء، والنياحة وغيرها، أى لا يشهدون مجالسها ومجامعها.

وإذا مروا: مصادفة واتفاقا بما يجب أن يلقى ويهمل لعدم نفعه وخيريته" مروا كراما" منصرفين عنه غير ملتفتين إليه، صيانة لسمعهم ونفوسهم، وأن تتجه إلى مالا خير فيه من اللغو الذى يسبب الانقطاع عن الله تعالى، فهم يكرمونها من تعرفه والوقوف عليه، وعدم الخوض فيه، لأن ترك ذلك من حسن إسلام المرء:

وأصل الكلمة من قولهم ناقة كريمة إذا كانت تعرض عند حلبها تكرماً كأنها لا تبالى بما يؤخذ منها: لغزارة لبنها:

وأخرج ابن أبى حاتم، وابن عساكر، عن إبراهيم بن ميسرة، قال بلغنى: أن ابن مسعود ﷺ: مر بلهو معرضا ولم يقف، فقال النبى ﷺ:

لقد أصبح ابن مسعود (وأمسى كريماً) ثم تلى إبراهيم ابن ميسر: (وإذا مروا باللغو مروا كراماً) وقيل اللغو، هو ما يستهجن من القول: وكرمهم إذا مروا به: التعبير عنه عند ذكره بطريق الكتابة والإيمان إليه، من غير تصريح بلفظه الذى وضع له: كلفظ النكاح، والفرج، وغير ذلك مما تنبوا عنه الأسماع وتنفر منه:

وقيل المراد باللغو: الزور، وهو الأمر بالباطل : ذكر تارة بأنه زور كبطلانه، ومرة بأنه لغو لأنه لا فائدة فيه، وأصل الكلام: وإذا مروا به فوضع الظاهر موضع المضمر: أى والذين لا يحضرون الباطل : وإذا مروا به اتفاقا أعرضوا عنه.

وأنت تعلم أن شهادة الزور نوع من الكذب الفاحش الذى يدخل فى المعاصى كلها، ومرتكبة فاسد المروءة، خبيث الطعمة، خبيث الغرض آثم قلبه، يبدل الحق باطلا والباطل حقاً، ليبيع دينه وكرامته وأخرته بدنيا

---

(١) عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الحلال بين وأن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرا لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب).

ذاهبة، وعرض يسير، وسيرة سيئة فى الناس، فأهون به وبمكانته الذليلة الوضيعة عند الله والناس وإنك لتعجب كثيراً لهذه الفئة التى كثر سوادها، والتى تنصب نفسها لأداء هذه الشهادة الفاجرة، ويتكلف بعضهم الصلاح والتقوى ليتصيد قلوب العامة وأموالهم حتى إذا دعى لأداء هذه المهمة جاد بنفسه لنصرة الضلال، وخطى هذه الخطوات فى سبيل الشيطان.

وأما الاشتغال باللغو فهو مضيعة للوقت الذى هو رأس مال المؤمن، وعليه أن يستغله فى طاعة الله من قبل أن يأتيه الموت، فيضيع من يده أو يقول: رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب، فأصدق وأكن من الصالحين.

ولو علم العبد قيمة ما ينفقه من الزمن على الكلام الذى يحبط علمه - كالغيبة، والتفوه بما يقبح ذكره والتصريح به - لما فرط فى لحظة واحدة من عمره، ولما تبرع للهو وإخوان السوء بشئ من هذا المال الذى هو فى قدرة على استثماره وتنميته.

- وهذه الأحاديث فيما اشتملت عليه الآية:

١- عن أبى بكرة ﷺ، قال رسول الله ﷺ (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر)؟

قلنا: بلى يا رسول الله: (قال الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت)[١].

٢- وعن أيمن بن خريم "بن فاتك" قال : قال رسول الله ﷺ:
عدلت شهادة الزور إشراكا بالله تعالى، قرأ:
(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ، حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ)[٢] وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده: والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه[٣]).

---

(١) متفق عليه
(٢) أخرجه أبو داود والترمذى، والآية رقم ٣٠، ٣١ من سورة الحج.
(٣) متفق عليه

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ:

(من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت الناس الذى يحب أن يؤتى إليه[١])

وعن ابن مسعود ﷺ : قال : قال رسول الله ﷺ:

(وما كان المؤمن بالطعان ولا الفاحش ولا البذئ).

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

(ما كان الفحش فى شئ إلا شأنه ولا كان الحياء فى شئ إلا زانه)[٢].

وعن صفوان بن سليم ﷺ قال: قلنا يا رسول الله: (أيكون المؤمن جبانا؟ قال :نعم

قلنا أفيكون بخيلا؟ قال نعم

قلنا أفيكون كذابا؟ قال : لا)[٣].

وعن مالك أنه بلغه أن ابن مسعود ﷺ قال:

(لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب، فينكت فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه، فيكتب عند الله من الكذابين)[٤].

وعن ابن مسعود ﷺ عن النبى ﷺ قال: (أن الصدق يهدى إلى البر وأن البر يهدى إلى الجنة وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً

وأن الكذب يهدى إلى الفجور، وأن الفجور يهدى إلى النار، وأن الرجل ليكذب حتى يكتب عن الله كذابا)[٥].

وعن بهز بن حميم عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ:

(ويل للذى يحدث بالحديث ليضحك منه القوم، فيكذب، ويل له)[٦].

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه.
(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن.
(٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن
(٤) رواه مالك فى الموطأ
(٥) رواه مالك فى الموطأ
(٦) أخرجه أبو داود والترمذى

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

(يكون فى آخر أمتى أناس دجالون كذابون: يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم لا يضلونكم ويفتنونكم)[١].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

(نهى رسول الله ﷺ عن التحريش بين البهائم[٢]، والتحريش بينها إغراء بعضها ببعض).

وعن بردة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

(من لعب بالنرد شير: فإنما صبغ يده فى دم خنزير)

(النرد شير) هى المعروفة اليوم بالطاولة.

وعن عائشة رضى الله عنها: أنها أرسلت إلى قوم سكان فى دارها عندهم نرد: لأن لم تخرجوها وإلا أخرجتكم من دارى، وأنكرت ذلك عليهم،أخرجه مالك.

وعن محمد بن المنكدر قال:

بلغنى أن الله تعالى يقول يوم القيامة:

(إن الذين كانوا ينزهون بأسماعهم عن اللهو، ومزامير الشيطان؟ أدخلوهم فى رياض المسك، ثم يقول للملائكة عليهم السلام أسمعوهم حمدى، وأخبروهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون).[٣]

قوله تعالى: (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا)[٤]

اعلم أنه تعالى وصف عباده فى الآية السابقة بأنهم عباده المعرضون عن الدنيا التى تحول دون إقبالهم على ربهم، ولذلك فهم لا يشهدون الزور وهم يكرمون أنفسهم عن سماع اللغو إذا مروا به.

وفى هذه الآية نعتهم بأنهم متوجهون إلى عمل الآخرة التى يريدونها ويسعون لها سعيا.

فالآية الأولى منبئة عن أنهم لا يرجون حرث الدنيا ونصيبها وهذه تفيد أنهم يبتغون حظ الآخرة وجزاءها.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه
(٢) أخرجه أبو داود والترمذى
(٣) أخرجه مسلم وأبو داود.
(٤) الفرقان آية : ٧٣.

والمعنى: والذين إذا ذكروا بآيات القرآن المشتملة على العبر والمواعظ لم يعلموا عمل الكافرين والمنافقين، من عدم الانتفاع بها والاستفادة منها، بل يقبلون عليها كل الإقبال لتعيها آذانهم وترعاها أبصارهم، فالنفى متوجه إلى القيد كما هو الأكثر عند العرب والمراد إثبات الغرور ونفى أن يكونوا عند حصوله منهم صما وعميانا، والتعبير به دون لم يكبوا لإفادة شدة تأثرهم بالقرآن، فهم حين يسمعونه يخرون عليه متدبرين فيه، متأثرين به، والخرور السقوط على غير نظام، وترتيب،ويجوز أن يراد بهذه الآية معناها اللغوى،أى العلامة الدالة على قدرة الله المنبثة فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ كما فى قوله تعالى فى حق أضدادهم:

(وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون)[١].

قوله تعالى:

(والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما)[٢].

تقدم فى الآية السابقة، أن الله تعالى وصف المؤمنين بأنهم حريصون على مرضاته وطاعته، وذكر هنا أنهم يسألونه تعالى أن يقر أعينهم بصلاح أزواجهم وذرياتهم وأن يجعلهم أئمة فى الدين فهم يطلبون السعادة لأتباعهم بعد ما حصلوها لأنفسهم.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم:

(ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا بالجمع وقرأ باقى السبعة وذرياتنا بالأفراد ذهابا إلى قصد الجنس).

والمعنى: والذين يقولون فى دعائهم: ربنا لنا من جهة أزواجنا وذرياتنا سرورا عظيما،وفرحا جزيلا، بأن توفقهم للعمل الصالح، والإخلاص فيه ابتغاء وجهك، ورجاء ثوابك،وخوفا من عقابك ليكونوا عونا لنا على عبادتك، ولتطيب الحياة بالسكون إليهم، والعيش معهم، قانتين لربهم مطيعين،

وليقوى طمعنا فى أن يكونوا معنا فى الجنة، كقوله تعالى:

(والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم)[٣].

---

(١) يوسف آية : ١٠٥
(٢) الفرقان آية: ٧٤.
(٣) الطور آية : ٢١.

ولأن استجابة هذا الدعاء منا مع تذكيرهم والقيام على إصلاحهم وإرشادهم تحقق لنا الخروج من عهدة التقصير، لأننا مسئولون عنهم ومطالبون بعهدهم، والمراد: أن عباد الرحمن لا يريدون أن تقر أعينهم بأن تحوز أزواجهن وذريتهم مظاهر الدنيا من المال والجمال، ولكن الذى يملأ قلوبهم بشرا وحبورا أن يكونوا على جانب عظيم من الدين متمسكين به لا يحيدون عنه، ولا يخطئون طريقه.

ولاشك أن فى ذلك هناءة الأسرة ورفاهيتها والفوز بشرف الآخرى والأولى، ومن ابتدائية متعلقة بتهب، أى هب لنا من جهتهم أو بيانية بناء على صحة تقدم المبين بالكسر وهو الأزواج والذرية على المبين بالفتح وهو قرة أعين، والقرة مأخوذة من القر،وهو البرد، لأن دمعه السرور باردة، بخلاف دمعة الحزن فهى حارة، أو من القرار إذ السرور بالشئ يستقر نظره فيه لا ينتقل عنه إلى ما دونه.

والتنكير للتعظيم،أى قرة عظيمة الشأن، وتنكير أعين لأنه لا طريق لتنكير المضاف إليه، للقاعدة المستمرة من أن المضاف إلى واحد من المعارف يكون فى مرتبته والمتتبع لأسلوب القرآن يرى أنه يجمع العين بمعنى الباصرة على أعين دائما، وبمعنى الجارية على عيون كذلك.

(واجعلنا للمتقين إماما).

إى اجعلنا أئمة يقتدى بهم فى الدين، بأن تعلمنا وتوفقنا لصالح العمل، حتى نصلح لرياسة المسلمين وقيادتهم إلى الله على منهج القرآن والسنة.

وإنما قال: إماما بالإفراد للدلالة على الجنس فى قوله تعالى:

(ثم يخرجكم طفلا) أو المراد واجعل كل واحد منا إماما.

وإنما لم يقل: وعباد الرحمن الذين يمشون ويبيتون لربهم إلى آخره، ويقولون ربنا أصرف عنا عذاب جهنم بإسقاط الموصلات السبعة للدلالة على أن ما ذكر فى الصلة من الأمور الهامة الجليلة التى يجب أن تقصد لذاتها، وأن يجعل لها موصوف مستقل بها غير تابعة بما قبلها عناية واهتماما بشأنها.

وذكر العاطف فى قوله : والذين يبيتون وما بعده، لجعل الاختلاف العنوانى بمثابة الاختلاف الذاتى.

(أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما، خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما)[١].

لما ذكر سبحانه وتعالى أوصافهم السيئة، وأثنى عليهم ببلوغ النهاية فى الطاعة، وإحراز شرف العبودية، التى يجب أن يسعى إليها ويتنافس فيها، بين ما أعده لهم من الجزاء، وحسن المثوبة،والكرامة فى الدار الآخرة، على صبرهم عن الشهوات، وعلى مشاق التكاليف، لينبه على أن صفقتهم رابحة، وأنهم لهم تجارة لن تبور، وأنهم هم الفائزين.

وقرأ حمزة، والكسائى وشعبه، عن عاصم:

(ويلقون فيها تحية وسلاما) بفتح الياء والقاف، بينهما لام ساكنة.

وقرأ الباقون: يلقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف مفتوحة.

والمعنى فأولئك الذين تقدم نعتهم بما لا مزيد عليه من الخلال الكريمة، الدالة على منزلتهم،وخضوعهم لله تعالى، يجزون الغرفة بما صبروا، أى يدخلون أعلى منازل الجنة، جزاء لهم بسبب صبرهم على امتثال الأوامر واجتناب النواهى،ورياضة النفس، وجهاد الأعداء، وأذى المشركين وغير ذلك.

والغرفة الدرجة العالية من المنازل، وكل بناء مرتفع، وهى اسم جنس قصد به الجمع، ليوافق قوله تعالى: (وهم في الغرفات آمنون[٢])، وقيل الغرفة اسم للجنة، وأولئك مبتدأ، وما فيه من معنى البعد للتنبيه على علو درجتهم، وبعد منزلتهم فى الفضل. ويجزون خبرة، والجملة لا محل لها من الإعراب مستأنفة لبيان أنواع إحسان الله تعالى عليهم بعد وصفهم بما ذكروا على القول الثانى وهى فى محل رفع خبر لعباد الرحمن على القول الأول، والباء سببية وما مصدرية، وحذف مفعول صبروا ليعم ما تقدم، وغيره ليكون ذلك أبلغ فى مدحهم، وأدل على مزيد انقيادهم له تعالى.

وإنما لم يقل فعلوا لأن ما معنا أدخل فى باب الثناء عليهم لأنهم عالجوا أنفسهم وراضوها على فعل الخير وترك الشر، حتى ذللت لهم وانقادت.

(ويلقون فيها تحية وسلاما) أى دعاء بالتعمير ودوام البقاء، وسلاما من الآفات والعلل، وأصل التحية من قولهم: حياك الله وأبقاك،

---

(١) الفرقان آية ٧٥، ٧٦

(٢) سبأ آية : ٣٧

وهى مشتقة من الحياة. والمراد: أن الله تعالى يجمع لهم بين سكنى الجنة والانتفاع بما فيها.

وبين هذه المقالات السارة. وفاعل التحية والسلام: إما الله عز وجل لقولة تعالى (سلام قولا من رب رحيم)[١].

وإما الملائكة كقولة تعالى:

(والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)[٢].

وإما بعضهم مع بعض كما هو الظاهر من قوله تعالى: (وتحيتهم فيها سلام)[٣].

والغرض من هذا الكلام: إدخال الفرح على قلوبهم،وتهنئتهم بما وصلوا إليه من الدرجات العلى، لا أن الداعى يطلب لهم ما ليس حاصلا إذ بقاؤهم فى الجنة ثابت من غير تحية ولا دعاء، ونعيمهم دائم خالص من شائبة الضرر خالدين فيها حال من فاعل يلقون مفيد: لأن ما هم فيه من الخير والتكريم بدعاء الملائكة لهم بالسلام وتحيتهم أبدى لا انقضاء له:

(حسنت مستقرا ومقاما) أى ما أحسنها، أو حسنت بمعنى نعمت، فيها ضمير مبهم تقديره هى. والتأنيث باعتبار الجنة. ومستقرا نصبا على التمييز.

وهذه أحاديث فى ما أعده الله للمؤمنين فى الجنة.

وفقنا الله للعمل لها: عن أبى سعيد الخدرى ﷺ: عن النبى ﷺ قال:

أن أهل الجنة ليتراءون أهل القرن من فوقهم:كما تراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم.

(قالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟)

قال بلى (والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله. وصدقوا المرسلين)[١].

---

(١) سورة يس آية: ٥٨

(٢) الرعد آية : ٢٢، ٢٣

(٣) يونس آية : ١٠

وعن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة. ينادى مناد: أن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وأن لكم أن تصحوا تشقوا أبدا.

وأن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا.

وأن لكم أن تنعموا فلا تبتئسوا أبدا.[٢]

وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

(إن آدنى مقعد أحدكم من الجنة أن يقول له تمن، فيتمنى ويتمنى: فيقول له هل تمنيت؟ فيقول : نعم. فيقول له : فإن لك ما تمنيت ومثله معه)[٣].

عن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة: فيقولون لبيك: ربنا وسعديك، والخير فى يديك.

فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لا نرضى، يا ربنا فقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟

فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأى شئ أفضل من ذلك؟

فيقول: أجل عليكم رضوانى فلا أسخط بعده أبدا[٤].

وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ : فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال: إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر: لا تضامون فى رؤيته[٥].

وعن صهيب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

إذا دخل أهل الجنة الجنة: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيد بكم؟

فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة؟ وتنجنا من النار؟

فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم[١]

---

(١) متفق عليه

(٢) أخرجه الإمام مسلم

(٣) رواه مسلم فى صحيحه.

(٤) متفق عليه

(٥) متفق عليه

وعن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

(إن أهل الجنة ليتراءون بالغرف فى الجنة كما تراءون الكوكب فى السماء)[٢].

وعنه ﷺ قال: شهدت من النبى ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال فى آخر حديثه: (فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) ، ثم قرأ : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع: إلى قوله تعالى: (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين)[٣]

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

إنى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها، أو آخر أهل الجنة دخولا من النارحبوا، فيقول الله عز وجل:

أذهب فأدخل الجنة، فيأتيها: فيخيل إليه أنها ملئ: فيرجع: فيقول الله عز وجل:

(اذهب فأدخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا عشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا).

فيقول: أتسخر بى؟ أو تضحك بى؟ وأنت الملك؟

قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ : ضحك حتى بدت نواجذه، فكان يقول ذلك أدنى أهل الجنة منزلة[٤].

وعن أبى موسى ﷺ: أن النبى ﷺ قال:

(إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، ولا يرى بعضهم بعضا)[٥]

وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ عن النبى ﷺ قال:

(إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام ما يقطعها)[١].

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه

(٢) متفق عليه

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه والآية رقم ١٦، ١٧ من سورة السجدة.

(٤) متفق عليه

(٥) متفق عليه

وعن أبى هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: (لقاب قوسين فى الجنة خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب)[٢].

وعن انس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

(إن فى الجنة سوقا يأتونها كل جمعة: فتهب ريح الشمال فتحسر فى وجوههم وثيابهم فيزدادوا له حسنا وجمالا فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا:

فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم حسنا وجمالا، فيقولون: (وأنتم والله، لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا)[٣].

(قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما)[٤].

لما ذكر الله سبحانه وتعالى فيما تقدم جزاء المؤمنين ووصفهم قبل ذلك بالصفات المنبئة عن العبودية الحقة، والإخلاص فى خدمته تعالى، وامتثال أوامره، والبعد عما نهاهم عنه.

عقب ذلك بذكر أن ما يدعوهم إليه من العبادة، ليس لمنفعة ترجع إليه، إذ هو الغنى عنهم، وعن طاعتهم، بل وعن كل مخلوق كائنا من كان، وإنما يرشدهم بهذا الدين إلى ما يفيدهم، ويحقق لهم السعادة الأبدية.

فعلى جميع الناس أن يعقلوا هذه الرحمة، ويقدروها حق قدرها، فيعبدوه وحده، لا يشركوا به شيئا.

ويتبعوا هذا النور الذى أنزل لهدايتهم وصلاح أمرهم فى الدنيا والآخرة:

والمعنى: قل يا (محمد)لكل الناس متحدثا معهم عما حصل من جنسهم من خير وشر، وحتى يتبين لهم أن السبب فى ظفر البعض بتلك الخيرات الكثيرة والمقامات الرفيعة، هو تمسكهم بالإسلام وما يحث عليه من فضائل.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، ومسلم فى صحيحه، والبخارى فى صحيحه، والترمذى فى سننه عن أنس، وأخرجه البخارى ومسلم عن سهل بن سعد، وأخرجه أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم والترمذى عن أبى سعيد، وأخرجه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه فى سننه عن أبى هريرة.

(٢) متفق عليه

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه.

(٤) الفرقان آية: ٧٧

(ما يعبؤا بكم ربى لو لا دعاؤكم)، أى شئ يعبؤا بكم، وأى اعتداد يعتد بكم، ولولا عادتكم له تعالى، فإنكم إنما خلقتم لطاعته، والإقرار له بالألوهية والوحدانية.

كما قال تعالى: (وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون)[١].

وإلا فقد شاركتم البهائم فى هذا الوجود الخسيس القاصر على جمع الطعام والشراب، وتلبية الشهوات وعواطف الشر، ونبذ العقل والتفكير فى أمر المعاش والمعاد، على ضوء الحكمة والبصر بعواقب الأمور، وأصل العبء الثقل:

تقول ما عبأت بفلان، أى ما أعددت له ما يكون ثقلا على، وما استفهامية منصوبة على المصدرية، كما مر تقديره وذكر الرب مضافا إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لإفادة، أن هذا الكلام من جملة تربيته تعالى لعباده، وأن الرسول ﷺ مأمور من قبله تعالى، بأن يقول: وليس عليه إلا الإتباع والدعاء بمعنى العبادة، وهو مصدر مضاف إلى الفاعل.

وقال الزجاج: أى وزن يكون لكم عنده تعالى: لولا عبادتكم وجواب لولا محذوف، والتقدير لولا دعاؤكم لما اعتد بكم لدلالة ما قبله عليه.

وقيل المعنى: ما يصنع بكم ربى، لو لا دعاؤه إياكم إلى الإسلام، فالدعاء بمعنى الدعوة وهو مضاف إلى المفعول.

وقيل ما يصنع بعذابكم،لو لا دعاؤكم، معه آلهة، كقوله : تعالى:

(ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم)[٢].

وقيل: ما يعبؤا بكم بعذابكم لولا دعاؤكم إياه، وتضرعكم إليه فى الشدائد، كقوله: (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين)[٣].

ويصح أن تكون ما نافية، أى لا يعبأ بكم : (فقد كذبتم) هو بيان الحال من كفر بين المخاطبين، بعد بيان حال من آمن منهم.

والمعنى: فقد كذبتم بما أنزلته عليكم أيها الكفرة، وعصيتم أمرى واتبعتم غير سبيل المؤمنين: ومثل ذلك ما يقول الملك لمن خرج على أمره، إن من عبادتى أن أحسن إلى من يطيعنى، وقد عصيتنى، فسوف ترى ما سينزل بك من العقاب بسبب عصيانك.

---

(١) الذاريات آية : ٥٦

(٢) النساء آية: ١٤٧

(٣) العنكبوت آية: ٦٥.

فإنه تعالى قال:

قد أعلمتكم بأن حكمى ألا أعتد بعبادى إلا لعبادتهم، فقد خالفتم بتكذيبكم حكمى. فسوف يكون لزاما، أى يكون أثر التكذيب، أو جزاؤه لازما، يحيق بكم، فلا مفر لكم منه ولا خلاص، وذلك فى الآخرة، وقيل اسم يكون هو العذاب وعدم التصريح بالاسم، لتفخيم شأنه والتنبيه على أنه من الهول والشدة بحيث لا يمكن وصفه:

وقانا الله أسبابه ونجانا من موجباته وعصمنا من الزيغ بعد الهداية والضلال بعد الهدى.

الصوفى؟

يقول الإمام الأكبر عبد الحليم محمود شيخ الإسلام رضى الله عنه: إنه من إذا نطق بان نطقة عن الحقائق، وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق.

الصوفية؟

إنهم قوم آثروا الله على كل شئ؛ فآثرهم الله على كل شئ.

- من أين جاء هذا الاسم؟

لقد سئل ذو النون: لم لزمتم هذا الاسم - اسم التصوف - وهل هو مشتق من معنى،أو لقب؟

فقال: (قيل: إن اسم الصوفية كان فى الأصل "صفوية" من الصفاء، وذلك أنهم يسترون العمل ويكتمونه فلا يشوبه الرياء.

وقيل : إنهم كانوا فى الأصل "صفتية" مأخوذ من أهل " الصفة".

وقيل: إنه اسم لزمهم على غير اشتقاق، وإنما هو لمن تبتل منقطعا إلى الله من العباد، فأخلص المجاهدة.

وقيل: إنه علم غير مشتق من نسبة ولا عمل .

وكانوا يلبسون الصوف؛ لأنه أدعى إلى التقشف، وأشبه بلباس الصالحين.

وكان التصوف سمة المجتهدين فى العبادة".

الطريق: من طرائف ذى النون أنه سئل عن السفلة من هم؟

فقال : "من لا يعرف الطريق إلى الله تعالى، ولا يتعرفه". والقوب من الله سبحانه وتعالى سعادة.

يقول ذو النون: "بأول قدم تطلبه تدركه وتجده".

لابد من البدء بالطلب،والطلب فى إخلاص وصدق، وهذا طريق الإنابة.

وأما طريق الاجتباء فلا شروط له.. إن الله سبحانه وتعالى يقول: (الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب)[1].

للتصوف - إذن - طريقان: طريق الاجتباء، وطريق الإنابة.. وعن ذلك يعبر ذو النون فيقول - فيما رواه يوسف بن الحسين:- سمعت ذا النون يقول: "العطايا مواهب، والطاعات مكاسب، والناس رجلان: دارج، وواصل.

([1]) سورة الشورى: ١٣.

.. فالدارج سائر على طريق الإيمان.

.. والواصل طائر بقوة المعرفة.

.. ولكل دليل؛ فدليل الإيمان: العلم. ودليل المعرفة: الله تعالى.

.. فمتى يلحق السائر الطائر".

ويلخص ذو النون الطريق إلى الله، والسعادة التى تتأتى عنه فى إيجاز محكم جميل، فيقول: " إن المؤمن إذا آمن بالله واستحكم إيمانه خاف الله، فإذا خاف الله تولدت من الخوف هيبة الله، فإذا استقرت عنده درجة الهيبة دامت طاعته لربه، فإذا أطاع تولد من الطاعة الرجاء، فإذا استقرت درجة الرجاء تولدت من قبل الرجاء المحبة، فإذا استحكمت معانى المحبة فى قلبه استتبعت درجة الشوق، فإذا اشتاق أداه شوقه إلى الأنس بالله، فإذا أنس بالله اطمأن إلى الله، فإذا اطمأن إلى الله كان ليله فى نعيم، ونهاره فى نعيم، وسره فى نعيم، وعلانيته فى نعيم".

ومدار الطريق - فيما يرى ذو النون- على أربع :

" حب الجليل، وبغض الفانى القليل، واتباع التنزيل، وخوف التحويل".

وينبغى للمريد أن يحكم الأصل، ثم يطلب الفرع، كيف يسأل عن الزهد وهو لم يحكم الورع، وقبل الورع التوبة، ولربما نظرت إلى الرجل يسأل عن الرضا وهو لا يدرى ما القنوع.

وإننا لا نتحدث هنا عن طريق الاجتباء فإنهفى حقيقة الأمر ليس طريقا بالمعنى العادى:

إنه جذبة من جذبات الحق فى لحظة بعدها يتبدل المرء حالا بعد حال، ويدخل رحاب الحق- جل وعلا - عبدا من عباده المخلصين.

لقد اختارته العناية منذ الأزل، وأدركته فى الوقت الذى اختارته الحكمة.

أما طريق الإنابة فهو الطريق بالمعنى العادى للكلمة، ولا بد فيه من الطلب، فإذا صدقت النية فى الطلب وصدقت العزيمة جاءت الهداية.

(ويهدي إليه من ينيب)[1].

وإن قلة تأسف إنسان- كما يقول ذو النون - على الحق إنما تكون من قلة قدر الحق عنده، فإذا عرف الإنسان قدر الحق فإنه يسعى فى طلبه.

([1]) سورة الشورى: ١٣

ما هو أول القدم الصادق فى طلب الله سبحانه؟

إنه الفرار – من كل شئ إلى الله: (ففروا إلى الله)[١].

التوبة:

وأول مقام فى الفرار إلى الله التوبة الصادقة، حتى يبدأ المسير إلى الله على طهر، وحتى يكون العهد مع الله على ترك المعاصى. وتوبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص تكون من الغفلة.

يقول ذو النون:

" لله عباد تركوا الذنوب حياء من كرمه، بعد أن تركوها خوفا من عقوبته".

" ولو قال لك الله تعالى: افعل ما شئت، فلست آخذك بذنب. لكان ينبغى أن يزيدك كرمه استحياء منه، وتركا لمعصيته، إن كنت حرا كريما عبدا شكورا.. فكيف وقد حذرك؟".

وهذا الذى يقوله ذو النون إنما يستلهم فيه قول رسول الله ﷺ : "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه".

لم يعصه حياء منه، وهذا من صفات أصحاب النفوس الكريمة.

المريد:

ومنذ أن يبدأ الإنسان الطريق بالتوبة الصادقة، يسمى "مريدا".

ويوالى ذو النون النصح للمريد.. ومن كلامه:

" إياك أن تكون للمعرفة مدعيا، أو بالزهد محترفا، أو بالعبادة متعلقا، وفر من كل شئ إلى ربك".

وتحذير ذى النون من التعلق بالعبادة إنما هو توجيه إلى أن الرقى فى مقامات القرب إنما مرده إلى الله سبحانه، لا إلى العبادة.. ولذلك يجب أن يكون تعلق المريد دائما بالله، لا بأعماله.

وليس فى طريق الفرار إلى الله عقبات، وذلك أن الرزق مضمون والرزاق موجود، يقول ذو النون معاتبا الذين لا يفرون إلى الله: "إن الله رزقنا قوتنا، وكلفنا دون طاقتنا، فلا بما رزقنا اكتفينا، ولا بما كلفنا ائتمرنا".

وذو النون فى نصائحه للمريدين يحذرهم- باستمرار – "الدنيا".

---

(١) سورة الذاريات: ٥٠

والدنيا فى عرف الصوفية إنما هى الشهوات والأهواء، وقد عبر الله سبحانه عنها بقوله: (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)[١].

وبقوله سبحانه:

(زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب)[٢].

ويقول ذو النون: " استقرت منازل الدجى، وثبتت حجج الله على خلقه، فآخذ بحظه، ومضيع لنفسه،فمنارة حكمته، وحجته كتابه؛ فقامت الدنيا ببهجتها فأقعدت المريد. وألهت الغافل، فلا المريد طلب دواءه، ولا الغافل عرف داءه.

ثم خص الله خصائص من خلقه. فعرفهم حكمته، فنظروا من أعين القلوب إلى محجوب الغيوب، فساحت أرواحهم فى ملكوت السماء، ثم عادت إليهم بأطيب جنى ثمار السرور، فعند ذلك صيروا الدنيا معبرا، والآخرة منزلا، همتهم وقلوبهم عند ربهم.. ولن تفنى النفس إلا بالعلم بالله".

وقد سئل عن الآفة التى يخدع بها المريد عن الله، فقال: "يريه الألطاف والكرامات والآيات"

قيل له: يا أبا الفيض، فبم يخدع قبل وصوله إلى هذه الدرجة؟.

قال: "بوطء الأعتاب، وتعظيم الناس له، والتوسع فى المجالس،وكثرة الأتباع، فنعوذ بالله من مكره وخدعه".

قال : وسمعت ذا النون، وقد سئل: – ما أساس قسوة القلب للمريد؟.

فقال: "ببحثه عن علوم رضيت نفسه بتعليمها دون استعمالها والوصول إلى حقائقها".

ومن أهم النواحى التى كان يهتم بها "ذو النون" – فى نصائحه للمريدين– هى "الادعاء".

---

(١) سورة الحديد: ٢٠

(٢) سورة آل عمران : ١٤

فهو يقول مثلا: "كل مدح محجوب بدعواه عن شهود الحق.. لأن الحق شاهد لأهل الحق، لأن الله هو الحق، وقوله الحق، ولا يحتاج أن يدعى إذا كان الحق شاهدا له. فأما كان غائبا فحينئذ يدعى وإنما تقع الدعوى للمحجوبين".

وقال: "من ادعى مقاما حجب به عن الله".

والمحققون لا يدعون.. يقول ذو النون: "كلت ألسنة المحققين عن الدعاوى.. ونطقت ألسنة المدعين بالدعوى".

وينصح المريد بالتزام العبودية: "والعبودية: أن تكون عبدا فى كل حال، كما هو ربك فى كل حال".

وإذا خرج مريد من حوزة الأدب يرجع إلى حيث شاء.

ولكى يستفيد المريد لابد له- مع الأدب- من التواضع..

يقول ذو النون: "يا معشر المريدين: من أراد منكم الطريق فليلق العلماء بإظهار الجهل، والزهاد بإظهار الرغبة،والعارفين بالصمت. وذلك: ليزيده العلماء علما، والزهاد زهدا، والعارفون معرفة".

قال الله تعالى: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم)[1].

ولقد حرص ذو النون - الحرص كله - أن يجعل طريق المريد أول الأمر طريقا ربانيا، فبين المسالك والمهالك.

لقد بين علامات الانحراف وعلامات القبول.. عن سعيد بن عثمان عن أبى الفيض ذى النون المصرى، قال: " إن لله لصفوة من خلقه، وإن لله لخيرة من خلقه".

قيل له: يا أبا الفيض، فما علامتهم؟

قال: "إذا خلع العبد الراحة، وأعطى المجهود فى الطاعة، وأحب سقوط المنزلة".

قيل له: يا أبا الفيض.. فما علامة إقبال الله - عز وجل- على العبد؟

قال: "إذا رأيته صابرا،ساكرا، ذاكرا، فذلك علامة إقبال الله على العبد".

قيل: وما علامة إعراض الله من العبد؟

---

(١) سورة التوبة: ٦٠

قال: "إذا رأيته ساهيا،لاهيا، معرضا عن ذكر الله، فذاك حين يعرض الله عنه".

ثم قال:"ويحك، بالمعرض عن الله خسرانا،وهو يعلم أن الله مقبل عليه وهو معرض عن ذكره".

قيل له: يا أبا الفيض،فما علامة الأنس بالله؟

قال: " إذا رأيته يؤنسك بخلقه؛ فإنه يوحشك من نفسه.. وإذا رأيته يوحشك من خلقه: فإنه يؤنسك بنفسه".

ثم قال أبو الفيض: " الدنيا والخلق لله عبيد، خلقهم للطاعة،وضمن لهم أرزاقهم، ونهاهم وحذرهم وأنذرهم، فحرصوا على ما نهاهم الله عنه، وطلبوا الأرزاق- وقد ضمنها الله لهم - فلا هم فى أرزاقهم استزادوا، ولا هم للطاعة استجابوا".

ثم قال: "عجبا لقلوبكم.. كيف لا تتصدع؟!!.. ولأجسامكم.. كيف لا تتضعضع؟!!.. إذا كنتم تسمعون ما أقول لكم وتعقلون!!".

ومن أقواله: "إن المريد إذا صدق سعيه فيما بينه وبين الله حلاه فى صدور المؤمنين، وحلى ذكره فى أفواه المحسنين؛ شغلهم شغل يغلب على جميع الاشتغال، وحبهم له يحول بين الأهل والمال".

ويوجب ذو النون على المريد ألا يقول شيئا إلا إذا كان مستندا إلى حجة من الكتاب والسنة وفى ذلك يقول: "أشد المريدين نفاقا: من لحظ لحظة، أو نطق بكلمة بلا حجة استبانها فيما بينه وبين ربه".

وقال: "أخفى المريدين نفاقا: من تكلم بكلمة، أو عمل عملا على سبيل الغفلة، ثم سئل عن الحجة فى ذلك فاحتج بحجة لم تقع له قبل الفعل استنادا عن الناس واستحسانا لقوله".

وننتهى فى هذا بهذه النصيحة التى يسديها ذو النون للمريدين: عن العباس بن حمزة،قال: "دخلت على ذى النون وعنده نفر من المريدين وهو يقول لهم:"توسدوا الموت إذا نمتم، واجعلوه نصب أعينكم إذا قمتم، كونوا كأنكم لا حاجة لكم إلى الدنيا ولابد لكم من الآخرة".

الذكر:

إن المريد، بعد أن يأخذ على شيخه العهد على التوبة، يبدأ - فيما يبدأ به - بالذكر.

والذكر فى عرف القوم ركن مهم من الأركان التى لابد منها للقرب من الله سبحانه وتعالى.

ولقد أمر الله تعالى بالذكر، إنه سبحانه أمر بالذكر الكثير، ولم يحدد له وقتا وإنما أطلقه إطلاقا، فهو مطلوب فى الصباح، وفى المساء، وفى الآصال، وفى الضحى، وفى الليل، وفى كل وقت.

ولم يحدد الله سبحانه له حالة بعينها، فهو مطلوب إذا كان الإنسان قائما، وإذا كان قاعدا، وإذا كان مضطجعا.

وقد جعله الله من صفات ذوى الألباب.

ورتب الله عليه الكثير من الفوائد للعبد فى دنياه وفى أخراه.

والاستغفار من الذكر.. يقول الله سبحانه فى شأنه: (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود)[١].

ويقول سبحانه: (استغفروا ربكم إنه كان غفارا(١٠) يرسل السماء عليكم مدرارا (١١) ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا(١٢))[٢].

ويقول رسول الله ﷺ: "من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا، ومن كل هم فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب".

ويقول – صلوات الله وسلامه عليه:

"أعطيت أمانين لأمتى" ... ثم تلا: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)[٣].

ثم قال: " فإذا مضيت بقى الأمان الثانى: الاستغفار".

وكثرة التسبيح من الوسائل المنجية، يقول سبحانه: (فلولا أنه كان من المسبحين (١٤٣) للبث في بطنه إلى يوم يبعثون)[٤].

ويقول سبحانه: (ألم أقل لكم لولا تسبحون)[٥].

والصلاة على رسول الله ﷺ من الذكر، وعنها يقول الشاعر:

إذا كنت فى ضيق وهم وفاقة وأمسيت مكروبا وأصبحت فى حرج

فصل على المختار من آل هاشم كثيرا؛ فإن الله يأتيك بالفرج

أما الفائدة الكبرى للذكر الصافى المخلص ، فهى القرب من الله سبحانه.

---

(١) سورة هود: ٩٠

(٢) سورة نوح: ١٠ – ١٢

(٣) سورة الأنفال: ٣٣

(٤) سورة الصافات: ١٤٣، ١٤٤

(٥) سورة القلم: ٢٨.

والصوفية يستعملون الذكر للقرب من الله تعالى.

ولذى النون الكثير فيما يتعلق بالذكر.. إنه يقول: " من القلوب قلوب تستغفر قبل أن تذنب؛فتثاب قبل أن تطيع".

ولقد سئل عن الذكر، فقال: "هو غيبة الذاكر عن الذكر".

ويقول: "من ذكر الله ذكرا على الحقيقة؛ نسى فى جنب ذكره كل شئ، وحفظ الله عليه كل شئ، وكان له عوضا عن كل شئ".

ومن كلام ذى النون: "من استأنس بشئ من الدنيا لم يجد صافى لذة ذكر مولاه".

وقال أبو جعفر المغربى: سمعت ذا النون يقول: "إذا أكرم الله عبدا ألزمه ذكره، وألزمه بابه، وتعرف إليه بالبر والفوائد، ومده من عنده بالزوائد، ويصرف عنه أشغال الدنيا، ويصرف عنه البلايا، فيصير من خواص الله وأحبابه. فطوبى له حيا وميتا.

لو علم أبناء الدنيا بحظ المقربين وتلذذ الذاكرين وسرور المحبين؛ لماتوا كمدا"[١].

وقال ذو النون: "من المحال أن تجد طعم ذكره، ثم لا يشغلك به عما دونه".

وكان ذو النون ينبه إلى أن من علامة أعراض الله عن العبد:

" أن تراه ساهيا، لا هيا، لا غيا، معرضا عن ذكر ربه.. تثقل عليه مجالسة الذاكرين".

وكان ينبه أيضا إلى أن: " لكل قوم عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكره".

وروى عن يوسف بن الحسين قال: سمعت ذا النون يقول: "لن ينال أحد اليقين فى المعرفة والتوكل إلا بدوام ذكر الله بالقلب، وكثرة مناجاته، وقطع ما شغل القلوب عن ذكر الله، والله ولى المؤمنين".

الورع:

ونعود إلى التوبة من جديد ونتحدث عن آثارها..

إن التوبة إذا صدقت استتبعت – لا محالة – الورع.

والورع هو تحرى الحلال فى كل شئ، وله شأنه العظيم فى التقوى، وفى تنوير القلب.

---

(١) أخرجه البيهقى.

ولقد تحدث الرسول ﷺ عن تحرى الحلال متناسقا مع القرآن الكريم فى ذلك:عن عطاء عن ابن عباس قال: تليت هذه الآية عند النبى ﷺ:(يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا)[١]. فقام سعد بن أبى وقاص، فقال يا رسول الله، أدع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فقال ﷺ: " يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذى نفس محمد بيده، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به".

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

" يا أيها الناس.. إن الله طيب، لا يقبل إلا طيبا.. وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم)[٢].

وقال: (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم)[٣].

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسة حرام، وغذى بالحرام، يمد يديه إلى السماء، يا رب، فأنى يستجاب لذلك"[٤].

ويقول ذو النون: "من لم يفتش على الرغيفين من الحلال لا يفلح فى طريق الله - عز وجل".

وذو النون - متابعا للقرآن والسنة- لا يقصر الورع على الجانب المادى، وإنما يعممه على كل شئ، فقد قال له رجل مرة:

- إن امرأتى تقرأ عليك السلام.. فقال ﷺ:

"لا تقرئونا من النساء السلام".

إنه يحب أن يعيش فى سلام مع قلبه ونفسه.

على أن أمر الورع المادى سهل بالنسبة لذى النون ومن اتبعه على طريقته، لقد وصل ذو النون بالحياة المادية بالنسبة للمريد إلى حدها الأدنى، إن يقول للمريد: "من طلب من الخبز ملحا يأكله لم يفلح فى الطريق أبدا".

---

(١) سورة البقرة : ١٦٨

(٢) سورة المؤمنون: ٥١

(٣) سورة البقرة : ١٧٢

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه، والترمذى فى جامعة الإمام فى

وكان ذو النون يعنى بذلك ألا يتكلف الإنسان شيئا، فإذا وجد الخبز الحلال ففيه الكفاية، ولله الحمد والشكر، وإذا وجد- دون طلب - مع الخبز شيئا آخر فإن فضل الله عظيم وله الحمد والشكر.

وكان ذو النون يحذر دائما من الجرى وراء شهوة الطعام، إنه يقول: "لا تسكن الحكمة معدة ملئت طعاما".

وكان يقول: "ما شبعت من الطعام - قط - إلا عصيت أو هممت بمعصية".

ولكن الأمر الشاق فى الورع هو الجانب الروحى، وهذا لابد له من جهاد النفس حتى تتزكى: (قد أفلح من زكاها)[١].

وهذا النوع من الجهاد مارسه ذو النون حتى تغلب على نفسه وهواه، وسيطر- بفضل الله - عليهما، وقال كلمته التى صدرنا بها هذا الكتاب:

"كيف لا أبتهج بك سرورا، وقد كنت أكدح ببابك حتى جعلتنى من أهل التوحيد".

الزهد:

وإذا صدق الإنسان فى الورع قاده ذلك إلى الزهد، والزهد هو التحقق بقوله تعالى: (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم)[٢].

إنه عدم تعلق القلب بالدنيا، أو هو سيطرة الإنسان على دنياه بحيث لا تستعبده.. إنه:

ألا يملكك شئ ولا يستعبدك شئ.

لقد تحدث ذو النون عن الزهد، وبين بعض تعريفات الناس له، فقال: "اعلموا - إخوانى - أن الناس قد تكلموا فى الزهد بمعان مختلفة،فبعضهم قال:" الزهد ترك حب المنزلة".

وقالت طائفة: "الزهد ترك راحة النفوس من جميع ما تستريح إلية".

وقالت طائفة: " الزهد ترك ما شغل عن الله".

وقالت طائفة: "الزهد رفض الدنيا وقصر الأمل".

وقالت طائفة: "الزهد الثقة بالله".

وقالت طائفة: "الزهد الإيثار لله وترك كل ما شغل عن الله".

---

(١) سورة الشمس: ٩

(٢) سورة الحديد: ٢٣

وقالت طائفة: " الزهد إخراج المخلوقين من القلب، وحب الخلوة".

ولعل ذا النون كان يرى أن كل هذه التعريفات صادقة، والواقع أنه لا يتأتى أن يكذب الإنسان تعريفا منها؛ فكلها موجهة إلى الخير، وإلى الرشد.. بيد أن ذا النون يضيف إليها- هنا وهناك - توضيحا جديدا لبعض زواياها.. ولقد قال: " اعلموا أن صفة الزاهد من لم يطلب المفقود حتى يفقد الموجود".

وقال: "سلب الغنى من حرم الرضا، ومن لم يقنعه اليسير افتقر فى طلب الكثير".

وقال: " من وثق بالمقادير لم يغتم".

وقال: " من عرف الله رضى بالله وسر بما قضى الله".

وقال: " عليك بالقصد،فإن الرضا بقليل الرزق يزكى يسير العمل".

ومهما يكن من أمر الزهد، ومهما يكن من منزلته الرفيعة فى التقوى، فإنه ليس إلا مرحلة فى الطريق.

يقول ذو النون عن الزهاد: " الزهاد ملوك الآخرة، وهم فقراء العارفين".

ومرة أخرى يقول: " وهم مساكين العارفين".

الزهد مرحلة، إنه مرحلة ضرورية، وهم يسلم إلى التوكل.

التوكل:

والتوكل من المقامات السامية،ولقد وعد الله سبحانه أن يكون حسب المتوكلين، فقال: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)[١].

ويشرح ذو النون بعض جوانب التوكل فيقول- كما رواه يوسف ابن الحسين:ـ

" إن الله خص أهل ولايته بالانقطاع إليه، ليعرفهم فضله وإحسانه فانصرفت هموم الدنيا عن قلوبهم، وعظم شغل الآخرة فى صدورهم، لما ركبها من هيبة ربهم، فألزموا قلوبهم العبودية،وطرحوا أنفسهم فى ساحة التوكل".

قال الله تعالى: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)[٢].

---

(١) سورة الطلاق : ٣

(٢) سورة الطلاق : ٣

" فالمتوكل على الله قد اكتفى - بعلمه بالله - عن الاشتغال بغيره؛ حتى اتصل خوفه ورجاؤه بالله، لأنه لا مانع ولا معطى إلا الله، فلم ترغب عن الله بجهلك؛ فتخضع لمن دونه عند تخويف الشيطان؟!..

واعلم أن أخص المتوكلين عليه،يحجب عنهم كل آمنة، فهم ينظرون إلى الله تعالى، ولا يأملون غيره، فقد حجب قلوبهم عمن سواه، بما يرجون من إحسانه، واستغنوا بذكره عن ذكر غيره..

واعلم أنك لا تكون متوكلا حتى تصفو من كل مالك، ولا ترى إلا الله وحده، ولا تقدر أن تفر من رزقك، كما لا تقدر أن تفر من الموت.. أما سمعت الله يقول: (الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم)[١]

فاقطع الاشتغال بذكر الأسباب من قلبك، واعلم أن الله يرزقك بسبب وبغير سبب، ألا ترى أنه وعدك أن يرزقك، وغيب عنك علمه، ولو احتلت- بكل حيلة- أن يأتيك قبل وقته أو بعد وقته لم تقدر على ذلك فيما قصد لك، لا يمنعك غيره".

" والتوكل يزيد وينقص مثل الإيمان".

أما قوله "فاقطع الاشتغال بذكر الأسباب من قلبك".. فإنه هو وما ماثله من التعبيرات التى تتحدث عن التوكل،قد أثار الكثير من سوء الفهم، ومن الجدل الناشئ عن سوء الفهم.

إن رسول الله ﷺ وكبار الصحابة من أمثال أبى بكر ﷺ، وعمر، وخالد بن الوليد، وابى عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم أجمعين وغيرهم، كانوا من كبار المتوكلين على الله سبحانه، وكانوا- وعلى رأسهم الرسول ﷺ - يتخذون لكل أمر عدته فى الحرب، وفى السعى على المعاش، وفى تدبير الأمر الذى يوكل إليهم.

وكل ذلك اتباعا لتوجيهات القرآن الكريم: (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه)[٢].

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)[٣]. (يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله)[٤].

---

(١) سورة الروم: ٤٠.

(٢) سورة الملك: ١٥

(٣) سورة الأنفال: ٦٠

(٤) سورة المزمل: ٢٠

لقد اتخذ أسلافنا رضوان الله عليهم الأسباب لكل أمر، والعدة لكل حادث... ولكنهم لم يعتقدوا - فى يوم من الأيام- أن الأسباب هى الفاعلة،إنها ليست إليها، والفاعل الحق هو الله سبحانه:ومن هنا كان: " إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله".

إن الأسباب ليست مؤثرة بنفسها، وكل أمر مرجعه إلى الله: (وإليه يرجع الأمر كله)[١].

إن الصالحين يتخذون لكل أمر عدته، وكلنهم لا ينسون أن الفاعل هو الله، إنهم لا ينسون الله فى المبدأ.. فهو الموفق، ولا ينسون الله فى الوسط.. فهو الميسر، ولا ينسون الله فى الآخر..فإليه المصير: (أفرأيتم ما تمنون(٥٨) أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون(٥٩) نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين(٦٠) على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون (٦١) ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون(٦٢) أفرأيتم ما تحرثون(٦٣) أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون(٦٤) لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون(٦٥) إنا لمغرمون(٦٦) بل نحن محرومون(٦٧) أفرأيتم الماء الذي تشربون(٦٨) أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون (٦٩) لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون(٧٠) أفرأيتم النار التي تورون(٧١) أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون(٧٢))[٢].

(فلينظر الأنسان إلى طعامه(٢٤) أنا صببنا الماء صبا(٢٥) ثم شققنا الأرض شقا (٢٦) فأنبتنا فيها حبا(٢٧) وعنبا وقضبا(٢٨) وزيتونا ونخلا(٢٩) وحدائق غلبا(٣٠) وفاكهة وأبا (٣١))[٣].

وانظر معى إلى قوله تعالى: (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين)[٤].

وآيات الجهاد فى القرآن ، وآيات العمل، وآيات كسب الرزق.. إن كل ذلك حث الأخذ بالأسباب.

ومع ذلك فإن السبب بالأول والعامل الأخير مرده إلى الله ، ولقد كافح رسول الله ﷺ كفاح الأبطال متخذا الأسباب فى الصغير والكبير من ألوان كفاحه ، وكان فى كل خطوة من خطواته متعمدا على الله تعالى.

---

(١) سورة هود: ١٢٣

(٢) سورة الواقعة: ٥٨- ٧٢

(٣) سورة عبس: ٢٤ - ٣١.

(٤) سورة التوبة: ١٤

وفى ضوء ذلك ينبغى أن نفهم فكرة التوكل عند الصوفية ، أما ثمرة التوكل ... فإنها الإطمئنان إلى النتائج ، وكأن العبد يقول : يارب ، هأنذا قد بذلك كل ما أستطيع بوسائلى التى أملكها لم أقصر فى ذلك والنتيجة إليك وأنت الحكيم الرحيم ، عليك توكلت وإليك انيب ، إنى واثق فى حكمتك ، مطمئن إلى رحمتك راضى بقضائك.

ويقول ذو النون فى التوكيل :

"من توكيل وثق ، ومن تكلف ما لايعنيه ضيع ما يعنيه" .

وسأله رجل فقال : يا أبا الفيض ، ما التوكل ؟

فقال له : "خلع الأرباب ، وقطع الأسباب" فقال له : زدنى فيه حالة أخوى ؟ فقال : "إلقاء النفس فى العبودية ، وإخراجها من الربوبية". وإذا صدق التوكل أسلم إلى الرضا ...

الرضا :

والرضا هو التسليم الكامل القلبى لكل ما يأتى عن الحكيم الرحمن ... إنه منزلة : "رضى الله عنهم ورضوا عنه"[١] .

ولن تجد بين المسلمين من لا يعترف بأن الرضا مقام سام ، وأنه المقام الذى يجب أن يكون عليه كل مسلم ، وذلك أن كل مسلم يعترف بأن الله أحكم الحاكمين وأنه أرحم الراحمين، ومن كان كذلك فلا بدمن الرضا بقضائه .

وقد يجد الإنسان من يجادل فى مقام الزهد ، أما فى مقام الرضا فلا تجد -نظريا - من يجادل فيه ، بيد أن واقع الناس يختلف عن نظرياتهم ، فواقع الناس هو عدم الرضا ، وكل صغيرة وكبيرة إنما هى محل شكوى ، وقليل جدا من كل أحواله : الحمد لله .

وإذا قالها فيما يرضيه فإنه لا يقولها فيما لا يتفق مع هواه ، وإن لذى النون - عن مقام الرضا - الكثير من النفائس ، إنه يقول "طوبى لمن أنصف ربه عز وجل" : قيل وكيف ينصف ربه؟. قال : "يقر له بالآفات فى طاعته ، وبالجهل فى معصيته، وإن آخذه بذنوبه رأى عدله ، وإن غفر له رأى فضله ، وإن لم يتقبل منه حسناته لم يره ظالما لما معه من الآفات ، وإن قبلها رأى إحسانه لما جاد به من الكرامات" .

ويقول :

---

(١) سورة المائدة : ١١٩.

"لم يحب الله من لم يرض بقدره ، ولم يرج الله من لم يثق بقسمه" وقال : "من وثق بالمقادير لم يغتم" وعن يوسف بن الحسين قال : سمعت ذا النون يقول : "من قال : لو ...لكان ، فقد ولى الأمر غير الله" فإذا استمر المتصوف فى مقاماته مع "الذكر" أسلمه ذلك إلى معرفة الله بالله.

المعرفة:

وذو النون يقسم المعرفة إلى ثلاث أقسام :

القسم الأول : "حظ مشترك بين عامة المسلمين .

القسم الثانى : "معرفة خاصة بالفلاسفة والعلماء .

القسم الثالث : وهو العلم بصفات التوحيد خاص بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم .

ولقد سئل ذو النون عن كمال العقل وعن كمال المعرفة فقال : "إذا كانت قائما بما أمرت ، تاركا لتكلف ما كفيت فأنت كامل العقل ، وإذا كنت بالله – عز وجل –متعلقا وغير ناظر إلى سواه من أحوالك وأعمالك ، فأنت كامل المعرفة .

أما أغلب الأحوال التى استبعد الله سبحانه بها العارف ، فهى بحسب رأى ذى النون : –

* رؤية كل شئ منه .
* ورجوعه فى كل شئ إليه .
* وسؤاله إياه كل شئ.

والعارف– كما يقول ذو النون – لا يلزم حالة واحدة ، إنما يلزم ربه فى الحالات كلها ، أما عبادة العارفين ، فعنها يقول : "إن لله عبادا عبدوه بخالص من السر فشرفهم بخالص من شكره ، فهم الذين تمر صحفهم مع الملائكة فرغى ، حتى إذا صارت إليه ملأها لهم من سر ما أسروا له .

إن حظ العارفين فى الأشياء "هو" ... ومن أجل ذلك : لا يبالون ما فاتهم ، مما هو دونه ، والعارف فى كل يوم أخشع : لانه كل ساعة "أقرب" وسئل ذو النون : بم عرف العارفون ربهم ؟ فقال : "إن كان بشئ فبقطع الطمع و الإشراف منهم على اليأس ، مع التمسك منهم بالأحوال التى أقامهم عليها ، وبذلك المجهود من أنفسهم ثم إنهم وصلوا – بعد – إلى الله بالله .

وقال : "إن العارف استغنى بربه ... فمن أغنى منه ؟ وورثه ذكره وأناخه بفنائه : فاستأنس به" أما رسالة العارفين فهى:

* نشر "لا إله إلا الله" فى مجالس الذاكرين .
* وتفريج كرب التوابين.
* والدلالة على الله بلسان التوحيد لجميع العالمين .

ومع كل ذلك فإن لكل قوم –كما يقول ذو النون – عقوبة وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله ، وإذا ما وصل الإنسان إلى "المعرفة" فقد أصبح صوفيا ، وهنا يمكن ان نتساءل :

– إذا ما وصل إلى المعرفة هل يتأتى أن ينتكس ؟

– أيمكن ان ينتكس الصوفى فيصبح من أهل الدنيا ؟

عن ذلك يقول ذوالنون : "ما رجع من رجع إلى من الطريق ، ولو وصلوا إليها ما رجعوا فأزهد فى الدنيا تر العجب" .

إن العارف لاينتكس، لقد قطع المقامات التى تربطة بالدنيا ، إنه أصبح ربانيا ، وأصبح قلبه خاليا مما سوى الله سبحانه ، إنه أصبح فى سعادة بالله ، أو أصبح – على حد تعبير إبن سينا – مبتهجا بالله ،إنه وصل إلى الحالة التى يقول فيها الصوفيه: "نحن فى سعادة لو علمها الملوك لجالدونا عليها بسيوفهم" إنها السعادة التى أثرها إبراهيم بن أدهم ﷺ على ملاذ الدنيا كاملة موفورة ،وإنها السعادة التى أثرها الفضيل بن عياض على حياة الفتوة والشطارة ، وأمجاد القوة والغلبة، وهى السعادة التى يؤثرها كل من وصل إليها على ماعداها .

أينتكس ؟ ... كلا وحاش لله أن ينتكسوا من وصوا إليه ، إن مقام المعرفة هو مقام الواصلين ،وعن هذا المقام ينبثق مقام المحبة.

المحبة :

يقول ذو النون :

أموت ومـا مـاتت إليـه صبـابتى ** ولا رويت من صرف حبك أوطـارى
منـاى المنى كل المنى .. أنت لى منـى ** وأنت الغنى كل الغنى ؛ عند إقتـارى
وأنت نهى سـؤلى وغايـة رغبتـى ** موضع شكواى ومكنـون إضمـارى
تحمل قلبـى – فيـك –مـا لا ابثـه ** وإن طال سقمى فيك أو طال إضـوارى
وبين ضلوعى منك ما لـك قـد بـدأ ** ولم يبـد باديـة لأهـل ، ولا جـار
أنرت الـهدى للمـهتدين ولـم يكـن ** من النور فى أيديـهم عشـر معشـار
فنلنـى بعفـو منـك ؛ أحيـا بقربـه ** وعشنى بيسر منـك يطـرد إعسـارى

ويربط ذو النون المحبة والذكر .. فعن سعيد بن عثمان ، قال : سمعت ذا النون يقول : "ويحك ، من ذكر الله على الحقيقة نسى فى حبه

كل شئ ، ومن نسى فى حبه كل شئ حفظ الله عليه كل شئ ، وكان له عوضاً فى كل شئ" .

ويعتبر ذو النون محبه الله سراً لا يجوز الخوض فيه لئلا يسمعه العوام ، وقد تذاكر القوم المحبة فى مجلسه ، فقال : "كفوا عن هذه المسألة حتى تسمعها النفوس فتدعيها" ثم أنشد:

الخوف أولى بالمسئ ** إذا تألله والحزن
والحب يجمل بالتقى ** وبالتقى من الدرن

وهذا الموقف هو موقف المقدس للمحبة الذى يصل تقديسه لها إلى السمو بها حتى عن الحديث عنها ، وكان ذو النون يهيجه السماع ، إذا اتصل بحب الله سبحانه ، فقد حدثوا أنه لما دخل بغداد اجتمع إليه الصوفية ، ومعهم قوال منشد فإبتدأ ينشد :

صغير هواك عذبنى ** فكيف به إذا احتكما
وأنت جمعت من قلبى ** هوى قد كان مشتركا
أما ترثى لمكتئب ** إذا ضحك الخلى بكى

فانتشئ ذو النون ، ومن شدة نشوته سقط على وجهه وظل الدم يقطر منه وهو لا يدرى ، ولحب الله على الحقيقة علامات منها ما حدث به محمد بن أحمد ابن عبد الله بن ميمون قال : سمعت ذا النون يقول : "قل لمن أظهر حب الله : أحذر أن تذل لغير الله ، ومن علامة المحب لله ألا يكون له حاجة إلى غير الله" .

ومنها ما حدث به سعيد بن عثمان قال : سمعت ذا النون يقول : "من علامة المحب لله ترك كل شئ ما شغل عن الله : حتى يكون الشغل كله به له"[1].

ويصف ذو النون مدى تعلق المحبين بربهم فيقول : "خوف النار إذا قيس إلى خوف القطع من المحبوب ، كقطرة الماء تقذف فى أعظم المحيطات" .

الود:

وعن المحبة تنبثق أحوال عدة ، فعنها ينبثق حال "الود" وهو حال من الحالات الشريفة السامية ، ولقد سمى الله نفسه : الودود ويقول على

---

[1] أخرجه البيهقى فى "الزهد"

لسان أحد رسله: " إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ "[1].

والصوفية كثيراً ما يلجأون إلى هذا الإسم الشريف فى دعائهم ومن ذلك قول شاعرهم :

ومن علينا يا ودود بجذبة ** بها نلحق الأقوام من سار قبلنا

وعن الود يقول ذو النون : "الحب لله عام ، والود لله خاص ؛ لأن كل المؤمنين يذوقون حبه وينالونه ،وليس كل مؤمن ينال وده" .

ثم أنشأ يقول :

من ذاق طعم الوداد ** هجر جميع العباد
من ذاق طعم الوداد ** خلى لذيذ الرقاد
من ذاق طعم الوداد ** سلى طريق العباد
من ذاق طعم الوداد أنس برب العباد

وعن المحبه ينبثق حال الأنس بالله .

الأنس :

ويقول ذو النون عن ذلك : "الأنس بالله من صفاء القلب مع الله ، والتفرد بالله : الانقطاع من كل شئ سوى الله"

وفى تاريخ ابن عساكر عن أحمد بن قطن بن أبى قطن ، قال : سئل ذو النون – وأنا حاضر عنده :

– متى يجد العبد حلاوة الأنس بالله عز وجل ؟ قال : "إذا قطع العلائق ورفض الخلائق ، وكان من أهل الحقائق وعمل بالرقائق ، فحينئذ ينجو من البوائق" .

وقال : "إذا أحب القلب الخلوة ، فقد أوصله حب الخلوة إلى الأنس بالله ومن أنس بالله استوحش من غير الله، فلله در قلوب أنست بجلال الله، وارتعدت فزعاً لهيبته" .

وعن البرقى قال : سمعت ذا النون يقول: "الأنس بالله نور ساطع ،والأنس بالخلق غم واقع" . ولقد وصل ذو النون بالأنس بالله إلى منزلة يقول عنها : "أدنى منازل الأنس أن يلقى فى النار فلا يغيب عن مأموله" .

الشوق :

أما عن الشوق فيقول ذو النون: "الشوق أعلى الدرجات والمقامات ، إذا بلغه استبطأ الموت شوقاً إلى ربه ،وحباً للقائه والنظر إليه".

---

[1] سورة هود : ٩٠

وعن أحمد بن يوسف قال : سئل ذو النون عمن استحق الاشتياق ، فقال :"إذا استحق الاشتياق قرب من باب الخلاق وشرب من كأس المذاق فشاق واشتاق" ، وهذه كلمات تلقى بعض الضوء على ما سبق أن ذكرناه فى باب التصوف : "سأل أبو عبد الله بن سهل ذا النون : قال : متى أتوكل ؟ قال : "اليقين إذا تم سمى توكلا ، قلت : متى يتم حبى لربى ؟ قال : "إذا سمحت الدنيا فى عينيك ، وقذفت أملك فيها بين يديك قلت: فمتى أخاف ربى ؟ :

قال : " إذا سرحت بصرك فى عظمتك ، ومثلت لنفسك أمثال نقمته ، قلت : فمتى يتم صومى؟ قال : إذا جوعت نفسك من البغضاء ، وأمت لسانك من الفحشاء ، قلت : متى اعرف ربى ؟ قال : إذا كان ما اسخطه عندك أمر من الصبر ، قلت : فمتى أشتاق إلى ربى ؟ قال : إذا جعلت الآخرة لك قرارا ، ولم تسم الدنيا لك مسكنا ودارا ، قلت : فمتى أشتد فى بغض الدنيا ؟ قال : إذا جعلت الدنيا طريق مخافة لا تلتفت إلى ما قطعت منها وجعلت الآخره ساحة مأمونه لا تأمن إلا بالنزول فيها ، قلت : فمتى أحب لقاء ربى ؟ قال : إذا كنت تقوم على حبيب ، وتصبر على أمر قريب : قلت : فمتى أستلذ الموت ؟ قال : إذا جعلت الدنيا خلف ظهرك ،وجعلت الآخرة نصب عينيك ، قلت : فمتى أتقى شهوات مطاعم الأرض ؟ قال : إذا خالط قلبك الملكوت ، ومزج فى سرائر الجبروت ، قلت : فمتى تطيب معرفتى؟ قال : إذا استوحشت من الدنيا واشتد فرحك بنزول البلاء ، قلت : فمتى استقبح الدنيا ؟ قال : إذا علمت أن زينتها فساد كل معنى ،وأن محاسنها تفضى الى كل حسرة .

قلت : فمتى اكتفى بأهون الأغذية ؟ قال : إذا عرفت هلاك الشهوات وسرعة انقطاع عذوبة اللذات ، قلت : فمتى القنوع التام ؟ قال: إذا كان زخرف الدنيا عندك صغيرا ، وكان خوف الأخرة لك ذكرا، قلت : فمتى آمر بالمعروف ؟ قال : إذا كانت شفقتك على غيرك ، وخالقت العباد لمحبة ربك ، قلت : فمتى أوثر الله ولا أوثر عليه سواه ؟ قال : إذا أبغضت فيه الحبيب ، وجانبت فيه القريب ، قلت : فمتى أفزع إلى ذكره ، وأنس بشكره ؟ قال : إذا سررت ببلائه ، وفرحت بنزول قضائه .

الخلوة :

والحديث عن "التصوف" يكون قاصرا ، إذا لم نتحدث عن "الخلوة" .

وما من شك فى أن الخلوة فترة من الزمن ضرورية للمريد ، إنها نصرفه إلى الله صرفا كليا ، فتصفو ثريته ، ويستنير قبله بالذكر المتوالى ويرى فى خلوته وتأملاته الدنيا على حقيقتها "متاع الغرور" ويقترب من الله فى خلوته بسجوده وبصفاء سريرته.

ولقد كتب السهر وردى فى كتابه "عوارف المعارف" فصولا جميلة عن الخلوة وشروطها وأذكارها ، وكتب غيره عنها .

والناس – عادة – يستجمون جسمانيا كل عام ،وإن استجمامهم الروحى – ولو اسبوعا واحدا – أوجب لهم وأفضل أثرا لمجتمعهم وأهدى إلى الرشد .

ويقول ذو النون عن الخلوة : "لم أر شيئا أبعث لطلب الإخلاص من الوحدة : لأنه إذا خلا لم ير غير الله ، فإذا لم ير غيره لم يحركة إلا حكم الله ، ومن أحب الخلوة فقد تعلق بعمود الإخلاص ، واستمسك بركن كبير من أركان الصدق ، ومن تزين بعملة فحسناته سيئات" .

ولكن ذا النون حينما تمكن نور الإخلاص من نفسه قال : "ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله .

سر الملكوت :

فى هذه الكلمة يبين ذو النون سر الملكوت ، وهى كلمة من النفاسة بحيث رأينا أن نختم بها فصل التصوف ، حتى تكون خاتمة لهذا الفصل .

يقول أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن هاشم : قلت لذى النون : – كم الأبواب إلى الفطنة ؟ قال : "أربعة أبواب : أولها الخوف ، ثم الرجاء ، ثم المحبة، ثم الشوق ، ولها أربعة مفاتيح .

فالفرض مفتاح باب الخوف ، والنافلة مفتاح باب الرجاء ، وحب العبادة مفتاح باب المحبة ، وذكر الله الدائم بالقلب واللسان مفتاح باب الشوق ، وهى درجة الولاية .

فإذا هممت بالأرتقاء فى هذه الدرجة ، فتناول مفتاح باب الخوف فإذا فتحته اتصلت إلى باب الفطنه مفتوحا لا غلق عليه ، فإذا دخلته فما اظنك تطيق ماترى فيه ، حينئذ يجوز شرفك الأشراف ، ويعلو ملكك ملك الملوك .

وأعلم – يا أخى – إنه ليس بالخوف ينال الفرض ، ولكن بالفرض ينال الخوف ، ولا بالرجاء تنال الكافلة ، ولكن بالنافلة ينال

الرجاء ، كما إنه ليس بالأبواب تنال المفاتيح ، ولكن بالمفاتيح تنال الأبواب.

وأعلم أنه من تكامل فيه الفرض فقد تكامل فيه الخوف ، ومن جاء بالنافله فقد جاء بالرجاء ، ومن جاء بمحبة العبادة فقد وصل إلى الله ، ومن شغل قلبه ولسانه بالذكر ، فذف الله فى قلبه نور الاشتياق إليه ،وهذا سر الملكوت فاعلمه واحفظه حتى يكون الله - عز وجل - هو الذى يناوله من يشاء من عباده.

وهذا العدد الجديد من حولية كلية أصول الدين بالقاهرة - جامعة الأزهر يقوم على منهج أصيل فى البحوث التى يقدمها إنه منهج السلف الصالح فى العقيدة والتشريع ، والأخلاق إنه يقدم الإسلام فى مصادره المعتمدة والسليمة والتى ليس فيها أى خلط ، أو انحراف ونحب بهذه المناسبة أن نلفت نظر السادة الأساتذة الأجلاء الذين يتقدمون ببحوثهم للنشر فى الأعداد القادمة مراعاة القواعد التالية :

١- الا يكون البحث منشورا من قبل على أى صورة من صور النشر، ولا مرسلا إلى جهة أخرى ويعدا رسالة إلى المجلة تعهدا بذلك، وفى حال قبوله للنشر فى المجلة لا يسمح للباحث بنشره فى مكان آخر إلا بعد مرور سنة كاملة على تاريخ نشرة فيها .

٢- ألا يكون مستلا من بحث أو رسالة نال بها الباحث درجة علمية .

٣ - ألا يتجاوز ستين صفحة .

٤ - أن يكون متسما بالجودة والأصالة فى موضوعه ومنهجه وعرضه ومصادره ، متوافقا مع عنوانه ، بعيدا عن الحشو ، سليم اللغة ، دقيق التوثيق والتخريج ، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة ، وضبط المشكل ، وأن يراعى فيه سائر المعايير العلمية .

٥ - أن يكون العزو إلى صفحات المصادر فى الحاشية لا فى الصلب.

٦ - أن ترقم حواشى كل صفحة على حدة .

٧ - أن يقدم اسم الكتاب على اسم مؤلفه عند توثيق النصوص فى الحواشى ،وكذلك فى ثبت المصادر والمراجع.

٨- ألا يشار فى الحواشى إلى المعلومات المتعلقة بطبعة الكتاب ، المحال إليه ، إلا فى حال اعتماد الباحث اكثر من طبعة للكتاب، الواحد.

٩ - أن يراعى الابتداء بالتاريخ الهجرى فى كل ما يؤرخ .

١٠- أن تكتب الاعلام الأجنبية أولا بحروف عربية ، ثم باللاتينية لمن أراد .

١١- أن تثبت المصادر والمراجع مستوفاة فى آخر البحث مرتبه على حروف المعجم .

١٢- أن توضع النماذج المخطوطة والصور التوضيحية فى المكان المناسب .

١٣- أن يقدم الباحث تعريفا ببحثه محررا تام التحرير فى نحو مائة كلمة ، ويفضل ترجمته إلى الإنجليزية .

١٤- أن يرفق البحث بسيرة ذاتية للباحث .

١٥- أن يكون البحث مطبوعا ، أو مكتوبا بخط واضح ومصححا تصحيحا كاملا ،وترسل النسخة الأصلية للمجلة .

١٦- لا تعاد البحوث إلى أصحابها سواء نشرت ام لم تنشر .

١٧- يشعر أصحاب البحوث الواردة بوصولها إلى المجلة .

١٨- يخضع ترتيب البحوث وتنسيقها فى المجلة لاعتبارات فنية .

هذا وبالله التوفيق ،

عميد الكلية

أ.د . منيع عبد الحليم محمود

عميد كلية أصول الدين - القاهرة